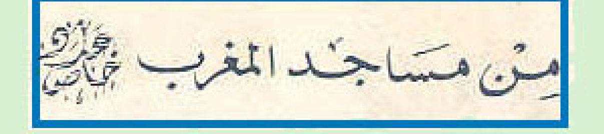


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط المغرب الأقصى





من مساجد المغرب

مجلة تصدرها وزارة عموم الأوقاف

دعوة الحق

العدد الأول
السنة السادسة
اكتوبر: 1962
جمادى الاولى: 1382

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة عموم الأوقاف. الرباط - المغرب

صورة الغلاف



منظر بديع لاحدى الخصتين الجانبيتين بجامع القرويين ويبدو فيه جانب مهم من صحن القرويين مع جزء من قبة الخصة .

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة « **دعوة الحق** » ــ قسم التحرير ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

الاشتراك العادي عن سنة 15 درهما ، والشرفي 30 درهما فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

« **دعوة الحق** » المصرف المغربي رقم 13.011.002 الرباط .

N° du compte ouvert à la Banque du Maroc, à Rabat, au nom de la Revue Daouat El Haq (13011002)

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة « **دعوة الحق** » ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط ــ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .

في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ــ قسم التوزيع ــ وزارة عموم الاوقاف ــ الرباط

تليفون 308.10 ــ 327.03 ــ الرباط



كلمة العدد

يعتبر هذا العدد الثاني من نوعه في سلسلة الاعداد الخاصة التي أخذت المجلة تفتتح بها سنواتها الجديدة ، ففي مطلع السنة الماضيـة كان العدد الذي بدأنا بـه سلسلتنا خاصا ببحث ومناقشة مختلف السبل التي يمكن ان تؤدي الى بنـاء نهضة ثقافية وفكرية في المغرب ، وقد كان عددا حافلا خلف اصداء متنوعـة في أوسـاط المثقفيـن وعلى صفحات الاعداد التي تلتـه .

وها نحن اليـوم ندشن سنتنا الجديدة بعدد خاص آخـر قصرناه على دراسة بعض المساجد المغربية ، قصدنا منه اثارة الاهتمام بالدور الثقافي والحضاري الـذي لعبته هذه المؤسسة الدينيـة في تاريخ المغرب وحياة المغاربـة .

ان المسجد في الاسلام لم يكن مكانا خاصا باقامة الشعائـر الدينيـة فحسب ، بل كان مركزا سياسيـا واداريا ومؤسسة ثقافية وتربوية وحضارية ارتبطت بهـا امجاد الامة الاسلامية في مختلف العصور . ففي المسجد كان النبي صلى الله عليـه وسلم ينظم امور الدولة ، ويستقبل الوفود والسفراء ويعيـن الولاة ويدير شؤون الجهاد ، وفي المسجد كانت دوما تحل اعنف الخلافات واشد الخصومات .

ومـن المسجد انبثقت مختلف تيارات الفكر الاسلامي ، وان كل متتبع للحركة الفكرية بما فيها من مذاهب لغوية وفقهية وكلامية وفلسفية سيجد اصولها وينابيعها مرتبطة بحلقات الدرس والمناقشـة التي كانت تعقد في زوايا المساجد الاسلامية .

وفي المسجد كان المسلم يتلقى زاده الخلقي والتربوي اذ فيه كان يستشيـر ويستفتي عن امور دينـه ودنيـاه ومعاشه اليومي من أكل وشرب ولبـاس وزواج وتجارة ، وكانت مفاهيم الحياة وتصورات الخير والشر يتعلمها ويستوحيها من المباديء التي تلقنهـا في المسجـد .

وقد كان المسجد بالاضافة الى هذا كله ملهما لكثير مـن العبقريات الفنيـة في الميدان المعماري ، ولعل المساجد القائمة حتى الآن بزخارفها واعمدتها وتلوينهـا ومختلف انماط بنائها تدل دلالة قاطعة على مدى ما وصلت اليه نهضة الفـن المعماري في ظـل الاسـلام .

وهذا مما يؤكد بان المسجد لم يكن مكانا خاصا بالعبادة ، بـل مدرسة جامعة ارتبط بها كل تاريخنا وتراثنا ، ولعلنا بهذا العدد نكون قد لفتنا نظر القراء الى اهمية هذه المؤسسة البالغة ، وساهمنا في تمجيدها مساهمة متواضعة ، وعسى ان تتهيأ لنا في المستقبل فرص اخرى ننوه فيها بدور المساجد الدينية المغربية ومختلف الخدمات التي اسدتهـا للمجتمع المغربـي .

دعوة الحق

المسجد الأعظم بمدينة طنجة الدولية

للأستاذ : عبد الله كنون

هناك ظاهرة حرية بالتسجيل وهي ان المدن المغربية التي خضعت للاحتلال الاجنبي مدة طويلة ، تقل فيها المساجد بكيفية تلفت النظر ، وذلك على الاقل في مدن الشمال كطنجة واصيلا والعرائش ، اما المدن الجنوبية فلا استطيع ان أؤكد هذه القضية بالنسبة اليها لقلة المامي بها ، ولا يصعب على الانسان تعليل هذه الظاهرة فانها مرتبطة بما كان الغزاة الاجانب ينطوون عليه من روح صليبية وامعان في التعصب الديني حتى انهم اول ما يبداون بتخريبه اماكن العبادة وابادة المقدسات من كتب ومدارس واضرحة وغير ذلك .

وطنجة التي رزحت تحت نير الاحتلال الاجنبي، البرتغالي ثم الانجليزي ، زهاء قرنين من الزمن ، هي من المدن التي تتمثل فيها هذه الظاهرة باجلى صورة ، فانها على ما كان لها من اهمية في العهود الاخيرة حتى اصبحت العاصمة الديبلوماسية للمغرب ، لم يكن بها الا ثلاثة مساجد وبعض الزوايا ، ادركناها نحن على ذلك ولم يحدثنا به احد ، ثم اتسعت عمارتها فبنيت المساجد الاخرى التي تزيد على المساجد القديمة وذلك في مدة ثلث قرن او اكثر بقليل .

واول مسجد بني بطنجة بعد استرجاعها على عهد السلطان مولاي اسماعيل هو مسجد القصبة ، وبذلك يكون هو العتيق .

وثم زاوية بنيت في هذا العهد ايضا وهي الزاوية الناصرية ، حدثني الفقيه العلامة ابو زيد عبد الرحمن الروضي رحمه الله ان الذي بناها هو الامام ابو علي الحسن اليوسي ، وكان زار طنجة في طريقه للحج ،

وهذه الزاوية كانت وما تزال لها صفة المسجد العمومي ، وتقام بها صلاة الجمعة ، ولا تفترق عن المساجد الا بالقبور التي فيها .

وكان ثاني مسجد بني في طنجة هو المسجد الاعظم الذي يساق اليه الحديث هنا . اما ثالث هذه المساجد القديمة فهو الجامع الجديد كما يعرف ، وقد بني في ايام السلطان مولاي عبد الرحمن سنة 1263 كما يوجد مكتوبا بسقف بلاطه الثاني ، وكان محله بقعة مهملة فترامى الى الناس خبر ان اليهود استصدروا اذنا من السلطة ببناء بيعة هناك ، فحميت نفوسهم وقاموا ببناء المسجد المذكور ما بين متبرع بالمال ومتطوع بالعمل ، حتى انجز على احسن حال بهذه الروح التعاونية المخلصة .

ونرجع الى المسجد الاعظم الذي نحن بصدده فنقول انه بني على عهد السلطان العالم مولاي سليمان وبأمر منه في سنة 1233 وكان بناؤه على اساس الكنيسة التي كانت هناك ايام الاحتلال الاجنبي على ما يقال ، ولكن من يدري ؟ فلعل الكنيسة نفسها قامت على اساس المسجد الذي كان هناك قبل الاحتلال . . .

وفيما يذكر كان بناؤه اولا من بلاطين اثنين في قبلته ، وهذين البلاطين اللذين يكتنفان صحنه من الجنوب والشمال ، فتكون ابوابه الثلاث على وضعها من اول يوم ، وهي الباب الرئيسية ، وتقع غربا مقابل المحراب ومنها يفضي الداخل الى الصحن ، ويجد عن كلتا يمينه ويساره سقاية ذات ثلاثة انابيب للوضوء ، وعلى واجهة هذا الباب كتب تاريخ بناء المسجد ، والبابان الاخريان هما الباب البحرية التي تقع جهة

الشمال ، والباب الجنوبية التي تقع في مقابلة محكمة القاضي ، وهذه قد تركت الآن مع شديد الاسف بسبب الزيادة التي تباشر لتوسيع المسجد من هذه الجهة وقد دخلت فيها المحكمة المذكورة وادارة العدول والمارستان والطريق التي كانت تفصل بين المسجد وهذه الاماكن ، وكانت هذه الطريق مهمة جدا لانها تصل المسجد بسكان حي بني يدر وبالمدرج الصاعد من شاطيء البحر ، وكانت الجنائز التي تحمل للصلاة عليها في المسجد الاعظم توضع في البيت الموالي لهذه الباب فيسهل على الناس الدخول الى المسجد منها والخروج بعد الصلاة لتشييع الجنازة مباشرة ، فاصبح ذلك متعذرا بعد ترك هذه الباب

ثم بعد مدة زيد في المسجد البلاط الثالث وهو الاول من جهة القبلة ، وكان فيما يظهر من صورة قديمة للمدينة ليست بمتناولي الآن ، خرائب واطلالا ، وبنيت في قبلته بعض المرافق كبيت الجنائز والمنبر ومقصورة الخطيب وخزانة صغيرة للكتب والمصاحف ، وهكذا صار بثلاثة بلاطات ، واستكمل تربيعه ، وبقي في قبلته من جهة المدرج الصاعد من الشاطيء بعض البنايات وهي دكاكين وفندق ، كان في الامكان توسيعه من قبلها بزيادة بلاط رابع ، لا سيما وهذه الدكاكين مما يخص الاوقاف ، والفندق بعضه للاملاك المخزنية وبعضه للاوقاف ، وتوسيعه بهذه الصفة مما يزيد في عمقه ويحفظ تربيعه ، الا ان الذي صار هو توسيعه من الجهة الجنوبية بادخال الطريق والمحكمة الشرعية القديمة وما والاها ، فضرب امتدادا من هذه الجهة على اعوجاج في بعض الاركان وصار المحراب مائلا الى جهة الشمال وتركت الباب الجنوبية لانعدام الطريق التي كانت مفتوحة عليها ، وان كانت ستعوض بباب غربية اخرى الى جانب الباب الرئيسية .

وميزة المسجد الاعظم من بين سائر مساجد المدينة بل من بين كثير من مساجد المغرب ، هو موقعه في مدخل البلد من جهة المرسى ومن جهة الشاطيء وبالقرب من وسط المدينة الذي هو السوق الداخلي لذلك لاتكاد تجده خاليا من المتوضئين والمصلين ، وهي ميزة يغفل عنها كثير من الناس فيلاحظون ان المصلين في المسجد الاعظم بطنجة كثرة في كل وقت ، ويستدلون بذلك على قوة تدين السكان ، وهو استدلال صحيح ولكن لاينبغي ان نغفل حظ الموقع في عمارة المسجد .

ثم من ميزاته ايضا الانشراح الذي يشعر به الانسان فيه ولا شك ان للموقع ايضا تاثيرا في ذلك فهو يقع بجانب البحر ، تهب عليه نسماته فتلطف من جوه في الصيف ، وفي الشتاء يلجا اليه المقرورون فيجدون فيه الدفء المطلوب ، ولتخطيطه الهندسي كذلك تاثير في هذا الانشراح ، فان بلاطاته وان كانت ثلاثة فقط ، هي من السعة بحيث يجيء في كل واحد منها بلاطان من مسجد آخر ، وكذلك صحنه متسع جدا ومربع ، ومن المحقق انه اكثر من القدر لمسجد مثله ليس من المساجد الكبرى ، فهو يزيد في انشراحه وطلاقة جوه بزيادة النور والهواء المطلوبين لمكان عمومي مثله .

وصحون المساجد عندنا هي من اسباب الراحة والمتعة التي تنعدم في الكنائس ، بل ومن اسبابه ضمان البيئة الصحية للجموع الغفيرة التي تزدحم في المساجد بمناسبة صلاة الجمعة والعيدين وغيرهما من المناسبات ، وقد يكون فيهم المرضى بالامراض المعدية وعديمي التحمل للضغط الذي ينشأ عن الازدحام فيقوم الهواء والشمس اللذان يتخللان المسجد بسبب صحنه المكشوف مقام المطهر والوقاية من العدوى والاستهداف للمخاطر الصحية ، وكلنا يذكر ابيات الفقيه المغيلي في التشوق الى فاس وخاصة مسجدها القرويين وصحنه البهيج حين يقول :

وبصحنه زمن المصيف محاسن
فمع العشي الغرب فيه استقبل

واجلس ازاء الخصة الحسناء به
واكرع بها عني فديتك وانهل

وكذلك تصميمه البنائي مما له اثر في الجو المتع الذي يمتاز به ، فهذه الاقواس الواسعة والسواري الضخمة والسقف الضارب في الارتفاع جهده كلها عوامل لانشراح الخاطر وانبساح النظر لانها توحي بالعظمة والضخامة وان كانت رقعة المسجد الى حد محدود .

وفي الباب البحرية نافذة تقع في مقابلة الجدار الجنوبي من البلاط الذي يلي الباب الجنوبية التي تركت الآن ، وكم كان يلذ لي ان اجلس الى هذا الجدار بعد صلاة المغرب واثناء قراءة الحزب مقابل تلك النافذة لاني اشاهد منها البحر والشاطيء الاوربي في اسبانيا حين يدور مصباح المنار في مدينة طريف فيرسل

بضوئه الى السفن المارة ببحر الزقاق ، واظن ان هذه متعة لاتوجد في اي مسجد من مساجد الارض

ولعل الكلام على مسجد طنجة الاعظم بوصف حياته المادية لايغني عن الكلام على حياته المعنوية والحق ان حياته هذه مستمدة من حياته تلك ، فكلما كان المسجد مغريا بطبيعته على طول المكث فيه ، كلما كان ذلك ادعى للانقطاع للعبادة والاعتكاف وانتظار الصلاة بعد الصلاة الذي هو مما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات كما جاء في الحديث .

واعرف اناسا رحمهم الله كانوا منقطعين فيه ، كلما دخلت اليه وجدتهم هناك ، وفي ايام طلبنا كنا لانكاد نخرج منه طول النهار متنقلين من درس الى درس ، وكانوا دائما اما معنا ينصتون للدرس اذا كان درسا فقهيا او حديثيا واما قائمين يتنفلون اذا كنا ندرس علما من علوم العربية او العقلية .

ومرت على المسجد الاعظم فترة كانت الدروس لاتنقطع فيه ، وفي ايام طلبنا كانت تعقد فيه اكثر من عشر حلقات يومية للفقه والنحو والبلاغة والحديث والكلام والمنطق والاصول ، وكان لوالدنا رحمه الله دائما فيه فقط حلقتان يوميتان ولغيره من مشائخنا ابن العباس احمد السميحي والسيد عبد السلام غازي وغيرهما حلقات ايضا فضلا عما لهم في غيره وكان يمتاز في بعض شهور العام بحلقة للسلفي المشهور ابي محمد عبد الله بن ادريس السنوسي الذي كان من اول دعاة السلفية بالمغرب عقيدة وفقها ، وهذا كله قبل تاسيس المعهد الديني اما بعده فقد كانت تعقد فيه عشرات الحلقات يوميا الى ان تقل لمقره الذي يوجد به الآن اما الخطباء فيه فكثير ، ومن اشهرهم القاضي ابو البقاء خالد العمري وكان اديبا شاعرا من فضلاء أهل طنجة ، وله خطبة في كتاب النبوغ المغربي ، ومنهم ممن ادركناهم ابو محمد عبد الله المكناسي الخياري له ترجمة في تاريخ مكناس لابن زيدان .

وفي ايام الازمة السياسية التي كانت قائمة بين الوطنية المغربية وفرنسا اقيمت فيه عدة مهرجانات خطابية وكان من جملة الذين خطبوا فيه حينذاك الاستاذ سعيد رمضان والسيد انعام الله خان سكرتير المؤتمر الاسلامي العام ، وهو باكستاني خطب بالانجليزية ، وقبل ذلك في عام 1947 خطب فيه جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه خطاب الجمعة ،

وكانت مفاجأة عظيمة للاوساط الدينية تعادل مفاجآته الاوساط السياسية بخطابه المشهور في زيارته تلك لطنجة ، وفي بروزه لصلاة الجمعة وخطابه هذا وامامته بالناس قلت من قصيدة عرشية :

وما انس م الايام لا انس جمعة
قضت لك في الاملاك انك مفرد

خرجت الى فرض الصلاة بموكب
تحف به العلياء ايان يقصد

وتخشع ابصار الخلائق دونه
ويغمرهم منه سناء وسؤدد

الى اتيت المسجد الاعظم الذي
على علوي المجد ما زال يشهد

واسمعتناها خطبة عمرية
على حر معناها الخناصر تعقد

اشدت بما جاءت به الرسل من هدى
وما نصحوا اقوامهم وتعهدوا

وانكرت اقوال الدجاجلة الالى
على دعوة الدين الحنيف تمردوا

ولم تال في نصح الرعية كالذي
عن الخلفاء الراشدين يردد

ويا ما اجل القصد حين دعوته
تعالى ، يجير المسلمين وينجد

ويسعد بالنصر المبين ملوكهم
ويمنحهم توفيقه ويسدد

ولما راى المحراب بدرك طالعا
غدا هالة من حوله تتوقد

وكانت صلاة حين كانت امامة
وكم من صلاة بالامامة تفسد

وبعد فهذه كلمة مختصرة عن المسجد الاعظم بطنجة فيها تقويم له من الناحية المعمارية والدينية والعلمية لاتبلغ ان تكون تاريخا ولا تقصر عن ان تكون وصفا كاشفا له ، وذلك غاية ما يدرك من الاستعجال وقلة المراجع في الموضوع والله الموفق .

طنجة : عبد الله كنون

ابن يوسف و الكتبيين

للأستاذ : الرحالي الفاروقي

الحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على عباده المرسلين ، وعباده المخلصين وبعد :

فالمساجد كانت وما زالت شعارا من شعائر الاسلام ، ومعلما من معالم الدين ، وهي اول ما يفكر فيه المسلمون الجادون المسبحون ، كما اتضح ذلك فى عمل الرسول العظيم ، حيث لم يشغله شيء بعد الهجرة عن النظر فى اقامة مسجد ياوى اليه المسلمون لعبادة ربهم ، ويتعلمون فيه الايمان بمجتمعهم ، ثم يتصافون فى حياتهم ، كما يتصافون فى صلاتهم .

وقد كانت وضعية المسجد فى الاسلام وضعية سامية ، تتلاقى مع الاهداف وتتجاوب مع المشاعر ، فهو راحة الساجدين ، ومثابة المومنين ، وملجأ المستضعفين ، ومجلس المشاورة ، والقائم مقام المدرسة ، يهذب ويؤلف ، ويعرف ويثقف ، والمركز الدائم للترغيب والتنفير والتوجيه ، على لسان الخلفاء والخطباء ، الذين تتميز بمعانيهم المنابر ، وتتوضح ببيانهم الخواطر ؛ ومن ثم كان مستباحا لا حجر ولا حظر ، ومستأمنا لا اثم ولا غدر ؛ اذن الله لعباده المومنين ان يتوجهوا اليه بالسكينة والوقار ، ويرفعوه بذكر الليل والنهار .

وانما يقرب بيوت الله المومنون والموحدون — وانما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين .

وعمارة المسجد تكون ببنائه واصلاحه ، وتنقيته وانارته ، واقام الصلاة واعتكاف اي جهة من جهاته، وحمايته من الزيغ والعناد ، وصيانته من الضلال والفساد ، حتى يكون بيتا خالصا لله ، لايدعى فيه سواه البتة .

والاسلام يامر الناس باقامة المساجد ، واداء الجماعات والجمعات — وبتعليم كتاب الله الذي هو أصل الايمان والهداية ، وطريق العزة والاستقامة ، واساس المعرفة والثقافة ، وقوام المزايا والخصائص الانسانية ، كما كان الشان فى عهد آبائنا الاقدمين ، واسلافنا الصالحين الذين ساسوا انفسهم بسياسته، وحكموا الدنيا بشريعته ، ولا بد لابنائهم واحفادهم ان يقتصوا اثرهم ، ويربطوا تاريخهم ، حتى تقوم الحضارة على اصل اصيل ، والا فالحياة انف لاسابق لها من تراث فضل ، وتاريخ مجد ، وان كانت فهي حياة مدخولة لاترفع ذكرا ، ولا تقدم شبرا (ذلك)

وافضل المساجد على الاطلاق ، مسجد مكة المكرمة — ومسجد المدينة المنورة ، — ومسجد البلدة المباركة — فقد اختصها الله بمضاعفة الاجر والثواب فى المجاورة والعبادة والهجرة ، فاما البيت الحرام فقد رفعه ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام واما مسجد بيت المقدس فقد بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ، واما مسجد المدينة فاسسه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، واصحابه من المهاجرين والانصار ، بعد الهجرة ، خدم فيه صلى الله عليه وسلم بنفسه ونقل الحجارة اليه كما نقلها عند بناء قريش للبيت الحرام بيده الكريمة ، وكانه الاصل فى وضع الملوك والرؤساء حجر الاساس لبناء المساجد، والمساكن ، والمعامل ، ودور التجارة الكبرى — وكانه دعوة بالعمل الى العمل فى سبيل الله ، وفى سبيل

الصالح العام، لما فيه من الشرف والرفعة والتقدم والنهضة – واشرف العمل ما كان مرتبطا بدعائم الدين، وخادما لمصالحه، ونعم ذلك العمل، ونعم اجر القائمين به.

وهنا نسجل ما لمؤسسات الاوقاف فى عالم الاسلام عموما، وفى عالمنا خصوصا من اثر كبير في حياة المساجد، والسهر على احيائها، والعناية بانشائها، مما جعل الالسنة المومنة رطبة بالثناء على جلالة الملك محمد الخامس المرحوم الذي كان يوحي دائما الى المصالح، التي يرجع اليها امر المساجد ان تقدر قدرها، وتعرف حقها بالاخلاص فى خدمة شؤونها، ورعاية القائمين بامرها، حتى يتسنى للعمار والزوار ان يشهدوا علمهم البار، ويعبروا عن الغاية التي يرمي اليها رفع المساجد من وجود الصلة الدائمة بين العبد وربه، وبين الانسان واخيه، فتكون الحياة سامية، والقلوب واعية، والجماعة وافية، والامل فى هذا الوضع معقود على الخلف البار جلالة الملك الحسن الثاني، الذي تعهد واكد ان يحذو سياسة والده المنعم

ولقد كان الناس فى كل زمان يهرعون الى المساجد بقلوبهم، وينفقون عليها من اموالهم، ويعتقدون ان الخير كله ان يوفق المرء الى ارصاد ملك من املاكه فى سبيل مسجد من مساجد المسلمين آملين ان يندرجوا فى سلك الذين اتى الله عليهم بالايمان والخشية، ومن عليهم بالهداية والاهتداء، هذا كله كلام شامل، ياتي بعده كلام خاص بمسجد ابن يوسف، ومسجد الكتبية بمدينة مراكش تلك المدينة التاريخية، التي كتب لها الفضل فى مصاحف الاعصار على مفاخر الامصار.

مسجد ابن يوسف

هو ذلك المعهد الكبير الذي عاش مايقارب تسعة قرون، منذ ان اقامه أبو الحسن علي بن يوسف اللمتوني فى دولة المرابطين التي اشادت معالم الحضارة واثارت مآثر الثقافة، ورفعت قواعد العقيدة، واصول الملة المحمدية: فكان منبرا للدعوة، ومنهلا للمعرفة، ومنتدى للثقافة، ومركزا لاثبات دعائم الدولة، وبات من زينة الدراسة فى العصر الماضي ان تكون بالمساجد الدينية حيث تتوثق الصلة بين الحياة والعقيدة وتتأكد الرابطة بين الروح والمادة، كما هو اتجاه الاسلام الحميد، ومذهبه السليم.

ولما انتهى الامام المرابطي من تشييده سنة 514 – التفت اليه بالحظ الاوفى من عنايته، ووفر له من وفره وعطائه، وجلب اهل العلم والفضل لساحته، وجمع رجال الفكر والادب بجانبه، فوطئته اقدام الاندلس، وحلت به ركائبه الاولى، وتدفق فيه علمه وادبه، فتحول سريعا الى حياة الايجاب والانتاج، وراجت سوقه رواجا عظيما، وتقدمت تقدما باهرا، اخذت به مراكش طابعها العلمي والادبي بين كبريات العواصم العلمية البارزة، وساعد على نفاق سوقها، وسمو مجدها ان كانت قاعدة البلاد الكبرى، وعاصمتها الاولى، لاغلب دول المغرب، فاسرع اليها من كل طرف رؤوس البلاغة والفصاحة، وقطع المساوف من اجل بلاطها ذوو الحيثيات والهيئات.

بذلك فاز معهدها العظيم، واصبح تاجا في مفرق المعاهد. ومهبطا لوحي الافكار، وملتقى للظرفاء والاخيار، تنبعث منه انوار الهداية والعرفان الى سائر جهات المغرب، والى الاقطار المجاورة له..

ومن ذلك العهد وهو يكافح ضد الضلال والفساد، وينافح عن تراث الاسلام النفيس واللسان العربي المبين، واستطاع بجهاده الصادق ان يقطع المراحل البعيدة، ويجابه الاحداث الخطيرة، ويرفع صوت الحقيقة والشريعة، كما شهدت بذلك اقلام المؤرخين، واعترفت به السنة الباحثين، والتاريخ خير مرجع واقوى شاهد، وفيه الموعظة والعبرة لمن آمن واتقى، وكم كان تاريخ الجامعات الاسلامية حافلا بالنشاط فى تدعيم الوطنية العربية، وتثقيف العقول البشرية وتأدية الرسالة الكاملة التي تتجلى فى حفظ اللغة، وصون العقيدة، ونشر التاريخ، واطوار الحضارة، وذلك من المقومات التي ينبني عليها وجود سائر الامم الواعية، – ومن الحق ان نشير الى بعض من تخرج من هذا المعهد قديما وحديثا والى عناصر العلوم التي كانت تروج منذ ان برز هذا المعهد الى الوجود، وتوحد عرش المغرب والاندلس.

فمن العلوم – التفسير، والحديث، والنحو، واللغة، والاصول، والبيان، والادب، والتوحيد، والتصوف، والطب، والحساب.

وتخرج قديما من هذه الجامعة ما يعلمه الله من نوابغ العلماء، وافذاذ الادباء، وعباقرة الحكماء، ممن يشار اليهم بالبنان، ولا يقعقع لهم بالشنان.

ففي عهد الملثمين الامير ابو اسحاق ابراهيم بن يوسف اللمتوني ، وابو عمرو عثمان السلالجي الفاسي، وأبو عبد الله محمد بن احمد الرقطي المراكشي، وفي عهد الموحدين امير المسلمين يعقوب الموحدي ، وجماعة من الامراء والعلماء كابن القطان الفاسي، وابي علي المراكشي ، وعبد الواحد المراكشي ، — وفي عهد المرينيين فخر المغرب في الرياضيات احمد بن البناء المراكشي ، وتلميذه الابلي ، وفي عهد السعديين مثل المنصور السعدي ، وابن القاضي ، واليفراني ، وفي عهد دولة الشرفاء العلويين مثل امير المومنين سيدي محمد بن عبد الله ، والامير الجليل مولانا الحسن ، وغيرهما من سائر امراء الدولة العلوية القائمين حتى الآن .

وفي سنة 1938 شمله ذو الشرف والجلالة مولانا محمدالخامس ملك المغرب بظله وفضله ، محافظة على عظمته التاريخية ، ومراعاة لمكانته الاجتماعية ، فابى جلالته الا ان ينظم فيه الدروس ، مثل ما فعل بالقرويين .

وفي سنة 1943 — امر جلالته بانشاء الدروس العالية فيه على غرار القرويين ايضا، وفي اثناء هذا النظام الكريم ، تخرج منه مائة عالم ، واغلبها موزع على مصالح الدولة المغربية ، وقائم بالمعاهد الاسلامية ، وهكذا كان يلقى دائما كامل العناية ، وحسن الرعاية، من لدن المرابطين حتى دولة العلويين ... وانه الآن يفخر بوطنيته وقوميته ، ويسهر في الحياة الجديدة على تحقيق دعائم الثقافة المشتركة ، ويدعو باستمرار الى دعوة الاسلام وحركته المثلى ، ولغته الفصحى واعترافا بهذه المكانة ، افرغ عليه جلالة محمد الخامس ما يناسبه من حلل الاعتبار ، واسدى اليه من معروفه وبره البار، ما سجله التاريخ في صفحاته اللامعة ، وخلده في سطوره البيضاء .

مسجد الكتبية

واما مسجد الكتبية ، وهو الاسم الذي اشتهر في الازمنة الاخيرة بعد ان كان يسمى من قبل : بمسجد الكتبيين فقد شيده : عبد المومن بن علي الكومي الموحدي صاحب المهدي بن تومرت ، حينما تم له الدخول الى مراكش سنة 537 .

وذلك انه لما دخل مراكش استقدم اعيان الموحدين ، فامتنعوا من دخولها ، وقوفا عند وصية امامهم : (لاتدخلوها حتى تطهروها) وسأل فقهاءهم عن مغزى الوصية ، فاجيب ببناء مسجد فبناه بدار الحجر ، قرب قصر الامارة وقد كانت العادة انه كلما قامت دولة قامت معها منابر ومدارس ، تبشر بالمبدا الذي تعتنقه الدولة وتلتزمه ، وتنبىء عن نشاطها وعظمتها ، كما كان الشأن في الجامع الازهر ، على عهد الدولة الفاطمية ، وعبد المومن الموحدي هذا هو الذي حمل الناس في المغرب على مذهب ابي الحسن الاشعري في الاصول ، بعد ان كانت العقائد سلفية ، ولا تنكر عناية الموحدين بالمظاهر الفنية والعمرانية وبمعاهد العلم ، وخزائن الكتب ، حتى انه كان من سنتهم فيها ، ان لايتولاها الا من جلس على دست المعرفة ، وثبت وقت التجربة .

وقد روى التاريخ ان الذين اشرفوا على بناء مسجد الكتبيين من المهندسين ابو الليث الصفار ، وابو الحسن علي بن ابي حفص عمر بن عبد المومن ، وان يد التجديد قد تناولته مرارا في عهد الدولة العلوية — في عهد المولى عبد الرحمان وفيعهد المولى الحسن سنة 1307 .

وهو مربع الشكل منحرف له اربعة مخارج في جانبه الشرقي ، واخرى في جانبه الغربي ، وعلى يسار المحراب خوخة صغيرة لدخول الامام والامير .

منار الكتبية

وفي سنة 593 — شيد يعقوب المنصور حفيد عبد المومن مناره العظيم الذي لم يشيد مثله في الاسلام ، حتى قيل فيه انه العلم في الفلاة ، ومنزلته بين المآذن منزلة والي الولاة ، ولا تترك الوحدة المعمارية اي شك في انه من آثار المنصور ، الذي كان مولعا بالبناء والتشييد ، ومغرما بالابداع والتمييز ومهتما كذلك بشعائر الدين ، فقد سن النداء في الاسواق بالمبادرة الى الصلاة وقتل احيانا زجرا على شرب الخمرة ، وكذلك تكون الحراسة والامانة .

هذا وقد كان بجانب المسجد المذكور خزانة عظيمة لمختلف الكتب العلمية والدينية ، امتدت اليها مع الزمان ايدي الحدثان ، ولم يبق من نفائسها الا ماقل مما اضيف الى مخطوطات خزانة ابن يوسف ، كما كان يكتنفه : سوق للكتبيين ، واليهم نسب المسجد فيما بعد ، وذلك من دلائل نهضته الفكرية والثقافية ، وان كانت الحياة الثقافية لاتنجلي الا ببسط تراجم القائمين بها وذكر بحثهم ونتاجهم وبعد :

فقد شاهد كل من المسجدين التاريخيين احداثا، وطاولا اعمارا ، وصافحا حضارة ، وعالجا ثقافة ، الا ان صفحات تاريخهما مطوية ومنسية ، من حقهما ان تنشر وتتلى بآيات الحمد والثناء والله يعلم حقائق الامور ، ودقائق الاشياء « والله يعلم وانتم لاتعلمون » .

مراكش : الرحالي الفاروقي

من مظاهر الهندسة المعمارية في المساجد

للأستاذ : عبد العزيز بن عبد الله

عندما تولى يحيى بن محمد بن ادريس ملك المغرب عام 234 ه كثر الواردون على فاس (1) فكان ممن قدم من القيروان محمد بن عبد الله الفهري الذي استقر مع ذويه في عدوة القرويين وخلف بعد موته بنتين هما : فاطمة ام البنين ومريم ، وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا ان تصرفاه في وجوه من البر فعلمتا ان الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير في كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين (2) بالناس فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين ومريم في بناء جامع الاندلس (3)

وقد وقع الشروع في بناء جامع القرويين في رمضان 245 ه ونصبت قبلته على غرار قبلة جامع الشرفاء الذي اسسه المولى ادريس وكان يحتوي اول الامر على اربعة بلاطات ابتداء من القبلة ولكل بلاط اثنا عشر قوسا من الشرق الى الغرب واقيم المحراب مكان الثريا الكبرى كما جعل في مؤخره صحن صغير وصومعة واحتفظ بهذا الهندام المعماري الى ان كثرت العمارات واتصل البناء في ارباض المدينة من سائر الجهات وجرى امر زناتة بارض المغرب سنة 307 ه فازيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره واقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره وصنع له منبر من خشب الصنوبر .

وعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الاندلس وبايعه اهل فاس قام العامل احمد ابن ابي بكر الزناتي بتوسيع المسجد منفقا عليه « من اخماس غنائم الروم » فزاد اربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف (اي الشمال) في موضع الصحن الذي كان فيه بلاط واحد بعد ان هدم الصومعة لتطاول اشرافها على الدور المجاورة واصبح مصعدها يضم مائة درجة ودرجة وغشى بابها المواجهة للقبلة بصفائح النحاس الاصفر وتم ذلك كله عام 345 ه حسبما في التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل في اعلاها قبة صغيرة ووضع في دورانها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد وركب في الزج سيف الامام ادريس مؤسس المدينة وبنيت تحت القبة المذكورة قبة اكبر منها لجلوس المؤذنين لاشاعة الآذان في اوقاته وكان فيها بيت الراعي منهم لاوقات الليل وانصداع الفجر وبندائهم يقتدى باقي المؤذنين بصوامع المدينة وتوجد بمواضع المنارة بلاطة رخام وسط كل منها قائم يستدل بصدود ظله على خطوط بطول ازمان النهار ومرور ساعته وفي عطفات ادراجها سرج زاهرة يمر عليها الليل ، وفي عهد يوسف المريني (685 ه) نصب بدن من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقاب يخرج منها الماء بقدر معلوم الى ان يصل الخطوط فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار وقد صنعت في غرفة مطلة على الصحن منجانة على يد المعدل محمد الصنهاجي عام 714 ه وهي عبارة عن مجن من خشب الارز جعل في ركن الغرفة على يسار المستقبل ووضع في داخله بدنان كبيران من فخار احدهما اعلى من الآخر يحتوي على ماء وبالاسفل انبوب من نحاس يهبط منه الماء في البدن الاسفل بقدر معلوم وجعل في طرف الجنج

(الآلـة) مفطس (جفنة) وكذلك في جانب التفطيسة رسمت فيهما الساعات ودقائقها واوقـات الليـل والنهار وجعل الوقت المسطرة معلقة في (4) خارجها من الجنح يجري في حفر التفطيسة طالعا وهابطا وجعل على وجه الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل جسيما مجوفا من نحاس على هيئة الاطرفـة (اي الجوانب الداخلية) معلقا في الطرف الداخلي على العلو فـاذا طلع الجسم بطلوع الماء الذي يجتمع في البدن الاسفل طلع طرف (4) الخارج من التفطيسة وطلعت بطلوعـه المسطـرة ـــ وفي أيام ابي عنان (749 هـ) جعل خـارج الجنح دائرة عليها شبكة الاسطرلاب تدور رسومـه ومتى طلعت المسطرة عرف بها الوقت كما اقيمت هناك رمليات لاختبار الوقت مع اسطرلابات اخرى ومنـذ هذا العهد جعلت صارية ينشر فيهـا العلـم ايذانـا باوقات الصلاة النهارية ومنار لاوقات الليل وقـد صنـع ابو عنـان (عام 758 هـ) « مجـانـة بطيسان وطسوس من نحاس » مقابلة لباب المدرسة التـي اسسها بفاس وجعل شعار كل ساعة ان تسقط صنجة في طـاس وتنفتح طـاق .

وقد بنى المظفر بن المنصور بن ابي عامر المنبـر عام 388 هـ من « عود الابنـوس والعنـاب وغيرهما » فخطب عليه الى ايام علي بن يوسف بن تاشفين حيث صنع عام 538 هـ منبرا جديدا « من عـود الصنـدل والابنوس والنارنج والعناب وعظم العاج مع غشائيـن من جلد وكتان وذلك على يد نجار كان اماما في اللغـة والشعر (5) وكلف صنعه نحو 3800 دينار فضي .

وقد زيدت بجامع القرويين في مختلف العصور بناءات جديدة منها الباب الاكبر بسماط الموثقيـن (العدول) عام 505 هـ وبخارجه قبة الجص القربصـة (عام 617 هـ) وباب الشماعين (عام 518 هـ) (6) مـع قبتين احداهما بالداخل من الجص والاخرى من الارز بالخـارج (7)

وفي عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان اكثرها في ملك اليهود وزيدت في المسجد عشرة بلاطات مـن الصحن الى القبلة (8) والقبة بأعلى المحراب « بالجص المقربص الفاخر الصنعة » ورقش ذلك كله بورقـة الذهب واللازورد واصناف الاصبغة (9) وركب فـي الشماسات التي بجوانب القبلة اشكال متقنة من انواع الزجاج والوانه «ثم غشيت ابواب الجامع» بصفائـح النحاس الاصفـر بالعمـل المحكم والشكـل المتقن (كل ذلك عـام 533 هـ) وقد لاحـظ ابن ابي زرع ان هذا الفن كان يبهت الناظرين فلما دخل عبد المومـن بن علي عام 540 هـ خاف الفقهاء والاشياخ ان ينتقـد ذلك النقش والزخـرف لان الموحديـن « قامـوا بالتقشـف والتقلـل » فنصب الحمامـون على النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحولـه بالكاغـد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض (10)

وقد علق جورج مارسي على هذا الحدث فزعم انـه قصة ملفقة لتبرير البياض والفراغ الملحوظيـن في قبة المحراب (11) الا ان الحفريات التي قامت بها مصلحة الفنون الجميلة منذ عام 1952 اكدت حكايـة المؤرخ العربي فقد كشف عن نقوش رائعة غير انهـا لاتحتوي على اي توريق ذهبي وقد لوحظ ان اصناف الاصبغة المشار اليها من طرف صاحب القرطاس هي الازرق والاحمر والمغرة الصفراء وما زالت الالـوان متماسكة وفي رائق غضاضتها ويظهر ان مزيج الاصباغ كان يحتوي على مح البيض الذهبي اللون وان الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق اشعة النور المنعكس من النوافذ .

وقد جهز الجامع بمستودع توضع فيه امـوال الجامع واماناتـ الناس وكـان محصنا بخشب الارز وبخمس منافيس بصفائـح من حديد مقلوبة « وبنيت دار الوضوء بخمسـة عشر بيتا مع طاق في سقف كـل بيت للانارة وانبوبة نحاسية ينصب منها المـاء فـي نقير محفور من حجر وفي سمكها قبة من جبص مقربصة مرقشة بانواع الاصبغة وجعل بوسطها بيلة من الحجر الاحمر مع ثقوب من نحاس مموه بالذهب والبييلـة والخصة كلاهما من عمل رجل سجلماسي صنعهما له رجل ءاخر « من اهل المعرفـة بالبنـاء والهندسـة » اما المنزة فقد اقيمت عام 688 هـ « وفيها غرابـة الصنعة ونفاسة الخشب واتقـان الالصاق ودقـة

الخـرط والنقش ما يقضي بالعجب » (12) وصنعت سقاية منمقة «بالجص والحجر المنجور وانواع الصبغة» كما جعلت على المحراب عام 712 هـ مقصورة مـن خشب الارز القيت بعد ذلك اما الخزانـة فقـد اسسها ابو عنان المريني عام 750 هـ وجهزهـا بالكتب المنوعة وعين قيما لضبطها ومناولة مصنفاتهـا .

وللجامع 18 بابا و 300 سارية ـ عشر منهـا من حجر ملون وثـلاث منها تقع تحت الثريا الكبـرى تبصر منها جميع ابواب الجامع ـ و 21 بلاطا و 130 ثرية مـن النحـاس مختلفـة الالـوان والصناعـات والاشكـال والهيـآت .

اما جامع الاندلس فقد وقع الشروع في بنائـه كذلك عام 245 هـ وكان فيه ستـة بلاطـات وصحـن صغير وزاد فيه عامل للناصر الاموي الصومعة عـام 345 هـ (13) ونقلت اليه الخطبة مـن جامـع الاشياخ قبيل ذلك (321 هـ) وبعد نحو من ثلاثة قـرون عـام (600 هـ) امر الناصر الموحدي ببناء الباب الكبير الذي فيه درج باسفلها شباك من خشب الارز فيه ثلاثـة ابواب في الاوسط بيلة من الحجر الاصفر ينفجر بهـا الماء من وادي مصمودة . وباعلى الباب قبتان احداهما من جص مقربص الداخل والثانية من خشب الارز . .

كما امر الناصر ببناء سقاية ومدخل لمصلـى النسـاء ومصرية لائمة الجامع ودار للوضوء بخصتهـا تحاكي التي بجامع القرويين وعدد بلاطاته بعد سنـة 695 هـ خمسة عشر من الشرق الى الغرب ، وثلاثـة عشر من القبلة الى الجوف ، وتسعـة أبـواب و 134 ساريـة .

وكانت فاس في هذا العصر كما وصفها المراكشي « حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علـم القيروان وعلم قرطبة ... رحل من هـذه وهـذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل اكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غايـة الحضارة واهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشايـخ يدعونها بغداد المغرب » (14) .

وقد لاحظ كوستاف لوبون ان مدينة فاس كانت تزاحم بغداد في القرن العاشر الميلادي فكان بها نصف مليون نسمة و 800 مسجد وخزانة حافلة بالمخطوطات اليونانية واللاتينية (15) وقد زعم استاذ ايطالي هـو لويجي روسو انه اشترى من فاس مخطوطـات نادرة من عشاريات تيتيف (16) حول التاريخ الروماني .

وقد وصف كابريال شارم مدينة فاس بانها اول مدينة مقدسة بعد مكة وانها كانت مركز القوة العربية في عنفوان ازدهارها والعاصمة الفكرية والروحيـة للغرب الاسلامي بفضل معاهدها الخالدة ومساجدهـا الماجدة (17) وذكر مارسي (18) ان افريقية نفسهـا وهي الوطن العتيق لعلماء الاسـلام اصبحت تتلمذ لبرابرة الغرب وشبه علي باي العباسي هذه المدينـة بأثينة لوفر علمائها ومعاهدها (19) .

ولاحظ ليفي بروفنصال انها لم تكن اقل مكانـة من عواصم الاسلام الاخرى (20) نعم في هذه المدينـة تبلورت الحضارة العربية التي تفتقت بالمغرب فتلألأت اشعتها على اروبا (21) وقد احتفظت فاس على ممـر العصور باشعاعها « فهي ما زالت دار العلم وجامـع القرويين ما زال اول مدرسة في الدنيا (22) .

وذكر مارمول انه كان بفاس 200 مدرسة ونقل ونقل الكانوني في « شهيرات نساء المغرب » عن مؤرخ اروبي خصص كتابا لفن الانسان بالمغرب لاحظ فيه ان مدينة فاس كان بها في القرن الرابع الهجري « مدرسة للطب » وقد احيلت المدرسة المرينية بدار المخـزن في فاس الجديد حوالي عام 1844 م الى مدرسة للمهندسين نظم فيها السلطان دراسة العلوم الحديثة (23) .

وقد اكد مولاي عبد الرحمن بن زيدان (24) ان خريجي « مدرسة البوليتكنيـك » (الفنـون) التـي اسسها السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بفاس الجديد تابعوا دراستهم في معاهد انجلترا (مثل الصدر الاعظم الجباص) وايطاليا (مثل محمد بناني العلمي) .

وكان بجامع القرويين اواخر القرن الماضـي 700 طالب ونحو الاربعين استاذا ، وظل العدد جامدا الى ما قبيل الاستقلال حيث ينيف الآن على ستة آلاف وكان هؤلاء الطلبة يسكنون بالمدارس ويتمتعون بنظام الخبزة الذي عوض الآن بمنح دراسية ومطاعم مدرسية وداخلية منظمة في الشراردة .

جامع حسان

ان هذا الجامع من مآثر الموحدين الخالدة التي حققت وحدة الفن الشرقي والفن الاندلسي المغربي فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية ومشاعرها في السمو والعظمة وذوقها في التناسق الجامع بين الفخفخة والبساطة وهو مجهود رائع اذا اعتبرنا انبثاقه من اسرة « موحدة » كانت تعمل على دعم الاسلام في صفائه الاصيل ـ وحنفيته السمحة وعظمته البسيطة

ويقع جامع حسان شمالي شرق مدينة الرباط على علو نحو 30 مترا فوق البحر وهو المسجد الثاني الذي بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق وبانيه هو يعقوب المنصور الذي اتمه عام 592هـ ويظهر ان بناءه لم يتم ومنارته أقرب عهدا من منارة الكتبية ومنارة جامع شبيلية ، المعروفة بالخالدة ، وهي مربعة كمنارة جامع دمشق ، يبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعماري وهذا العلو وهو 64 مترا ـ يجعل من منارة حسان أعظم منارة في الغرب بل حتى في الشرق (25) اما الجامع فانه مربع المساحة تقريبا هندسي التقسيم لتساوق سواريه الفاصلة بين صحونه الواسعة ومحرابه مربع الشكل على خلاف المحارب المغربية ، وهو منحرف ببعض الشيء عن القبلة مثل جامع القرويين (26) .

رسالة الاوقاف المعمارية

لقد تذرع المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد ـ بشتى الوسائل لتركيز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين في ءان واحد بواسطة (رباع) توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية ، وقد ساهم الملوك والشعب في هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها ، واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا ان الاوقاف تتوفر في جميع انحاء القطر على احسن الاراضي والعقارات حتى على السوائم الحية في الجبل علاوة على الغراسات الثرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضي الخصبة الشاسعة والاملاك المختلفة في ابان الحماية ولا تزال صكوك تحبيسها موجودة حتى الآن.

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المارستانات للغرباء والمجانين ، واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلبة لقراءة القرءان والعلم ، واجرى لهم المرتبات في كل شهر ، وبنى الزوايا في الفلوات واوقف لها الاوقاف الكثيرة لاطعام عابري السبيل وذوي الحاجات (الذخيرة السنية ص 100) ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث في هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن (في كل بلد من بلد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) مدرسة فقامت مؤسساته الاجتماعية في تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وانفا (الدار البيضاء الحالية) وازمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر (المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925) ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعي وهي الاوقاف المعينة على الخبز مثلا الذي كان يوزع اسبوعيا او يوميا حسب اهمية الارباع هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التي كان يتعيش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة .

واذا اعتبرنا ان مدينة مغربية كانت تتوفر في كل حي من احيائها على عدة مساجد باوقافها ، لمسنا ضخامة الثروة الحبسية في المغرب ويكفي ان تعلم ان في فاس وحدها احصى في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين (785 مسجدا و 42 دارا للوضوء و 80 سقاية عمومية و 43 حماما) (زهرة الآس ص 33) وكلها حبسية (27) .

وكانت في المغرب اوقاف من نوع خاص (28) كالتي تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا في منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتي تنفق في تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاواني المكسرة وتعهد وتغذية الحيوانات والطيور (كذية البراطيل بفاس) وذلك بالاضافة الى تاسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والشبه هنا ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (29) .

المراجع

1) اسست القرويين بعد بناء فاس بثلاثة ارباع قرن وقد اختلف فى تاريخ بناء فاس ، وافرد ليفي بروفنصال بحثا فى الموضوع اقتبس فيه من مؤرخين كأبي بكر الرازي المتوفى عام 344 هـ والذي يقول بان باني فاس هو ادريس الاول الذي جاء الى المغرب عام 172 هـ ومات عام 174 هـ وبنيت المدينة فى نظره خلال هذه الفترة ولاحظ ابن سعيد ان ادريس الاول لم يؤسس سوى عدوة الاندلس ونقل ابن الابار عن ابى الحسن النوفلي ان ادريس الثاني بنى عدوة القرويين عام 187 هـ ويوجد فى مكتبة باريس درهم سك بفاس عام 189 هـ اي قبل التاريخ العادي لبناء فاس بعامين كما يوجد درهم فى متحف كاركوف بروسياسك بفاس عام 185 هـ وهو التاريخ الذي يعطيه الحسن بن محمد الوزان لبناء فاس .

2) لاحظ ابن ابى زرع ان عدد مساجد فاس انتهى ايام المنصور والناصر الموحدين الى 782 مسجدا علاوة على 122 ما بين سقايات ودور الوضوء و 73 حماما (الانيس المطرب ج 1 ص 64) .

3) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي طبعة 1340 ص 34

4) بياض فى الاصل

5) زهرة الآس ص 42

6) يذكر صاحب القرطاس ان كتابات التاسيس مؤرخة بعام 528 (ج 1 ص 85) ووهم صاحب الجذوة فاعطى تاريخا محرفا هو 710 هـ

7) احرقت القبة الخشبية عام 571 فصنعها الموحدون من الجص عام 600 هـ من بيت المال فى حين صنع المرابطون بابى السماط والشماعين مع القبتين من مال الاحباس .

8) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا موازيا للقبلة وقد لاحظ جورج مارسي ان هذا الاسلوب يرجع عهده الى صدر الاسلام وتجده فى مصر (جامع عمرو وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب فى مساجد فاس (فن الاسلام ص 95)

9) الانيس المطرب ج 1 ص 87 .

10) الانيس ج 1 ص 88 .

11) كتاب الفن الاسلامي طبعة 1926 ج 1 ص 302 وقد اكد مارسي هذا الزعم فى الكتاب الذي صنفه عام 1954 وهو « الهندسة المعمارية الاسلامية فى الغرب » ص 188 الا ان الاستاذ طيراس ايد مقالة ابن ابي زرع .

12) زهرة الآس ص 65

13) حسبما فى عتبة بابها ـ زهرة الآس ص81

14) المعجب فى تلخيص اخبار المغرب سلا عام 1357 ص 221

15) حضارة العرب ـ الطبعة الفرنسية ص 263 وقد ذكر لفان (ص 81) ان هذه الخزانة كانت تحتوي على 30 000 مجلد ، كما ذكر كودار (وصف تاريخ المغرب ج 2 ص 376) ان يعقوب المريني استرجع من المسيحيين عددا من المصنفات العربية واهداها الى القرويين ولاحظ ميلي (كتاب الموحدين ص 101) ان يعقوب الموحدي كانت له خزانة تضاهي مكتبة الخليفة الاموي الحكم الثاني ، وقد اهداها كذلك الى القرويين وفى عهد المولى زيدان السعدي اختلس قنصل فرنسي اربعة آلاف مخطوط عربي وباعها لاسبانيا فكانت من نواة الاسكوريال .

16) ولد هذا المؤرخ الروماني عام 59 قبل الميلاد

17) كتاب سفارة بالمغرب (ص 255)

18) كتاب الفن الاسلامي ج 2 ص 465 .

19) سفريات علي باي العباسي الى افريقيا وآسيا ـ باريس عام 1884 ج 1 ص 137

20) مجلة هسبريس ـ عام 1952 ص 3

21) كتاب سفارة المغرب ص 228

22) دلفان في كتابه « فاس وجامعتها » (ص 12)

23) الجريدة الاسيوية عام 1917 – كتابات عربية بفاس – الفريد بيل ج 10 ص 152 وكانت توجد بالجديدة في نفس الوقت مدرسة مركزية للمدفعية (كتاب امبراطورية تنهار ص 16) وقد اجرى تدريب لاثنى عشر طالبا مغربيا في المدرسة العسكرية بمونبيليى عام 1885 وانهوا دراستهم عام 1888 (هسبريس ج 41 عام 1954 ص 136) وقد وجه مولاي الحسن طلبه الى انجلترا وايطاليا واسبانيا (المغرب الحديث ايركان ص 114) وحتى الى امريكا (كتاب سفارة المغرب ص 218) .

24) الاتحاف ج 3 ص 367

25) لاحظ ابن بشكوال ان منارة قرطبة احسن منارات الاسلام

26) وقد فند ابن سعيد ذلك ملاحظا ان منارة الكتبية ومنارة اشبيلية الموحدتين اضخم من منارة قرطبة (نفح الطيب المقري ج 1 ص 267) ومساجد الريف شمالي المغرب عارية من المنارات وانما تمتاز عن باقي الدور بعلم ابيض (المغرب المجهول – موليراس – باريس عام 1895 ج 1 ص 144)

27) لاحظ بعض فقهاء فاس على الامير ابي يوسف بن عبد الحق المريني ما في بعض مساجد فاس من انحراف فجمعهم الامير وذكروا ان جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التي نصبها المولى ادريس وقد صلى اليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاة وامراء العدل فما غيروا ذلك .

وقد اكد الجزنائي في زهرة الآس (ص 75 ان ما يظهر من انحراف قد يقرب من الصواب على راي من يرى ان المطلوب من قبلة سائر الآفاق انما هو الجهة لمكة والجهة حاصلة وقد قال صلى الله عليه وسلم ما بين المشرق والمغرب قبلة .

ولعل الموحدين تشبثوا بظاهر هذا الحديث الذي يماثله الحديث الآخر الذي رواه البخاري في عدم استقبال القبلة في قضاء الحاجة حيث قال صلى الله عليه وسلم « شرقوا او غربوا » اي بالنسبة للمدينة المنورة وقد وهم الاستاذ طيراس في كتابه « سمت المحراب في المساجد » حين اول هذا الانحراف تاويلات مختلفة ضاربا صفحا عن تمسك الموحدين بظاهر الحديث .

27) وذكر ابن القاضي في الجذوة ان مساجد فاس كانت قبل اليوم 785 واما اليوم (عصر المنصور السعدي) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل اليوم 93 واما اليوم فلا عدد لها (ص 28)

28) وكانت هناك احباس من نوع خاص في كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثاني ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازي (ج 1 ص 20) وان كراسي العلم في التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسي والرسالة ونظم ابن زكري لها احباس (ج 1 ص 38) ومن احباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح في التدريس (نيل الابتهاج ص 169) وكان بعض العلماء لا ياكلون من مال الاحباس مثل سيدي عبد القادر الفاسي (السلوة ج 1 ص 310)

29) ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اوقاف المساجد ادخلها اهل فاس منافعهم وحسبوها من اموالهم ايام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة الغرناطي فتوجه الطلب على النظراء والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فابرزت المحاسبة 80 000 دينار (ص 42)

وقد ذكر ميشوبيلير في المستندات المغربية (عام 1907 ص 192) ان الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعوضهم في كل مدينة بناظرين يعينهما السلطان .

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

جامع الأندلس بفاس

محمد عبد العزيز الدباغ

تنقسم فاس الى عدوتين : عدوة الاندلس وعدوة القرويين ، اما الاولى فبناها المولى ادريس سنة 192 هـ واما الثانية فبناها بعد ذلك بسنة .

ان المولى ادريس حينما كان بمدينة وليلي وفد عليه عدد وافر من الاندلسيين والقيروانيين فكان من الضروري ان يفكر في تاسيس مدينة تضم الوافدين وتجمع اسرهم وتلائم احوالهم فما كان منه الا ان بنى مدينة فاس .

كانت المدينة اول الامر صغيرة وكان البناء فيها يقتصر على ناحية كرواوة وما جاورها حيث بنى المولى ادريس مسجدا صغيرا سماه مسجد الاشياخ ولكن الوفود كانت تتوالى عليه وتنضم الى دولته وتستظل بحمايته فضاقت المدينة وعمد الى بناء الضفة الاخرى حيث بنى دورا للسكنى ومسجدا آخر عرف فيما بعد بمسجد الشرفاء .

ان العدوة الاولى كانت مسكنا للاندلسيين الذين التجأوا الى المغرب بعد فرارهم من الحكم بن هشام الذي اوقع بالفقهاء فنسبت اليهم واما العدوة الثانية فقد استقر بها المولى ادريس مع بعض القيروانيين فعرفت بعدوة القروانيين .

ان هاته الهجرة التي قام بها القيروانيون والاندلسيون الى مدينة فاس كانت سببا في نهضتها العلمية والاقتصادية وسببا في ازدهارها وترقيتها وعاملا فعالا في نشر اللغة العربية بين ارجائها وتعميم هاته اللغة من بعد في بلاد المغرب .

وان الاهتمام الذي اولاه المولى ادريس لهؤلاء المهاجرين جعل الهجرة الى هاته المدينة يعلو رقمها يوما فيوما وجعلها تستمر ولو بعد وفاته حتى بلغت رقما قياسيا ايام حفيده يحيى بن محمد الذي تولى الملك سنة 234هـ .

ان كثرة الوافدين على مدينة فاس ايام هذا الملك العظيم كانت سببا في عمرانها وحيويتها وتمكين نفوذها في باقي اجزاء المملكة ولكن ليس من المعقول ان تظل المدينة كما كانت من قبل لان الضرورة اصبحت تدعو الى الزيادة فيها والى توسيعها والى تهيىء المساجد الكافية للصلاة والتعليم فقد كان المسجد في بلاد الاسلام يعتبر مركزا ثقافيا يتلقى فيه المسلمون دروس دينهم ولغتهم بعد ان يؤدوا فيه صلواتهم ولم يعد المسجدان اللذان كانا بالمدينة كافيين لهذا الجم الغفير من السكان بل اصبح الواقع يدعو الى التفكير في بناء مساجد اخرى وكانت اريحية المسلمين تدعوهم الى الاهتمام بشؤون دينهم والى العمل على تركيز اسسه والى انفاق الاموال في سبيل ذلك ولكنهم كانوا يخشون ان ينفقوا مالا حراما في شيء من هذا لذلك كانوا ينتظرون الفرصة حتى يملكوا مالا لا شبهة فيه وحينئذ تطمئن قلوبهم الى ان يحققوا بعض المشاريع الدينية وهذا ما وقع بالفعل ايام يحيى بن محمد بن ادريس فان اسرة قيروانية كانت تسكن عدوة القروانيين تتكون من رجل اسمه محمد الفهري القيرواني ومن ابنتين له احداهما اسمها فاطمة والثانية اسمها مريم فلما مات هذا الاب خلف مالا كثيرا ففكرت فاطمة في بناء جامع القرويين بهذا المال الموروث وفكرت اختها مريم في بناء جامع الاندلس وشرعتا في ذلك سنة 245 هـ.

ان هذا الشعور الديني الذي شع من هاتين المرأتين ليعد بحق مفخرة من مفاخر المرأة العربية المسلمة وليعتبر من اقوى مظاهر الرقي الفكري عند نسائنا في الماضي ، وان تفكير السيدة مريم القيروانية لنستدل به على الانسجام الذي كان سائدا بين سكان فاس ايام الادارسة وعلى التآلف الحاصل بين عدوتيها وان ما وقع من التناحر ايام المغراويين بين هاتين العدوتين انما كان اساسه الخلاف الحاصل بين الحاكمين .

ولما تم المسجد بالبناء اقبل الناس عليه واهتموا به الا انه لم يصبح مسجدا جامعا تقام فيه الخطبة الا في ايام الزناتيين الموالين للامويين بالاندلس سنة 345هـ بعد مائة عام من تأسيسه (*) فقد زاد فيه الامير احمد ابن ابي بكر الزناتي زيادة كثيرة ونقل اليه الخطبة من مسجد الاشياخ .

وبعد نقل الخطبة اليه اصبح له دور سياسي خطير لان منبر المسجد كان يوجه الشعب حسب آراء الدولة الحاكمة ويشرح للرعايا نظام الحكم الجديد ويحلل لهم المبادىء والخطط التي يسير عليها الملوك الحاكمون خصوصا في تلك الفترة الحاسمة التي كان المغرب يعيش فيها مهدد الجانبين وتحاول كل من الدولة الفاطمية التي كانت قد تأسست بتونس سنة 297هـ والدولة الاموية بالاندلس ان يكون تحت قبضتهما وكلما حاول الاستقلال عنهما او الصمود في وجهيهما لقي الاهوال والشدائد ، فهذا يحيى بن ادريس بن عمر ابن ادريس اعظم الادارسة صيتا واقدرهم على مجابهة الاهوال وتسيير الدولة ، مني بهجوم العبيديين عليه سنة 305 هـ ورغم مقاومته لهم فقد اضطر الى ان يقيم معاهدة صلح معهم على شرط ذكرهم في المنابر والدعاء لهم في المساجد ، ورغم هذه الشروط فقد رجع اليه العبيديون مرة اخرى سنة 309 هـ وبقي سجينا في يد موسى بن ابي العافية ما يزيد على العشرين سنة .

ورأى الامويون ان سلطتهم بالاندلس ستنهار اذا ما استمر العبيديون بالمغرب لانهم سيجعلونه ممرا الى غزوهم ولذلك ارتأى نظرهم ان يحتلوه ويشجعوا فيه الفتن حتى اذا جاؤوا اليه وجدوه طائعا لينا واستخدموا دهاءهم السياسي فافسدوا العلاقة بين موسى بن ابي العافية والعبيديين سنة 320هـ وضيقوا الخناق على الدولة الادريسية التي انتقلت الى شمال المغرب ، وتمكن عبد الرحمن الناصر من سبتة وطنجة وجعلهما مبدا انطلاقه لاحتلال البلاد واصبح يقاتل البربر حينا ويستميلهم احيانا حتى اصبحوا تحت طاعته وما هي الا ايام حتى احتل مدينة فاس وجعل عليها وليا من الزناتيين هو محمد بن الخير ثم ولى من بعده ابن عمه احمد بن ابي بكر الذي ابعد الرأي العام عن المسجدين الاولين اللذين كانت تنبعث منهما الدعوة للعبيديين والادارسة ووجه عنايته الى اصلاح مسجد الاندلس ومسجد القرويين ونقل الخطبة اليهما .

وكادت فاس تعرف في ايامه نوعا من الاستقرار السياسي وتأمن غوائل الفتن التي كانت تتعاقب عليها وكاد السكان ينسون ما لاقوه من محن واصبحوا يهتمون من جديد بالثقافة واصبح مسجد الاندلس منبعا علميا يأوي اليه الطلاب من كل صوب وحدب ينهلون منه غذاءهم الفكري ويستفتون فيه عن قضاياهم الدينية بل كاد يصبح مركزا للفقه المالكي نظرا لما يقوم به علماء المذهب من نشاط تعليمي حينذاك ، يقول الجزنائي في كتابه زهرة الآس (*) (ان جماعة من الصلحاء والعباد التزموا جامع الاندلس وتفرغوا فيه للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصدهم الناس للفتاوي وطلب العلم والادب والتماس الدعاء) وذكر منهم الفقيه جبر الله بن القاسم نزيل عدوة الاندلسيين بفاس فقال : (وهو ممن ادخل علم مالك اليها وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم لقي اصبغ بن الفرج وسمع منه .. وهو ممن لحق دراس بن اسماعيل رحمه الله) .

كان جبر الله هذا مطلعا على الفقه المالكي اطلاعا متينا حتى انه استطاع ان يجيب دراسا عن كل ما تضمنه كتاب ابن المواز .

وشاء القدر لهاته النهضة العلمية ان يكبح جماحها ولهذا المسجد ان يفقد نشاطه العلمي حين ارسل

---

* قيل ان الخطبة انتقلت اليه سنة 321هـ في ايام حامد بن حمدان الهمداني عامل العبيديين على فاس

* سلوة الانفاس لمحمد بن جعفر الكتاني الطبعة الحجرية بفاس الجزء الاول صفحة 356 .

العبيديون جيشا عظيما سنة 349 هـ بقيادة قائدهم جوهر فدخل فاسا عنوة وقتل عددا كبيرا من ابنائها وعلمائها واسر اميرها احمد بن ابي بكر الزناتي وخمسة عشر من اعيان البلاد وحملهم الى القيروان وهم في اقفاص من خشب وطاف بهم ثم حملهم بعد ذلك الى المهدية حيث سجنوا الى ان ماتوا في السجن .

ان مسجد الاندلس بعد هاته الوقعة فقد مركزه الثقافي واصبح مقرا سياسيا يوجه السكان الى خطط جديدة خصوصا بعد ان استقلت كل عدوة عن الاخرى وذلك حينما حاول الامويون ابعاد شبح العبيديين عن المغرب مرة اخرى فقد اعطوا امرهم لزيري بن عطية المغراوي باحتلال المغرب فارسل قائده عسكلان الذي احتل عدوة الاندلس سنة 375 هـ واستغل منبر جامع الاندلس للدعاية لبني امية واعلن البيعة لعبد الرحمن الناصر في حين ان عدوة القرويين بقيت في يد العبيديين الى سنة 376 هـ.

ثم وقع ذلك مرة اخرى حينما استقل فتوح ابن دوناس بن حمامة المغراوي بعدوة الاندلس واخوه عجيسة بعدوة القرويين .

ان هذا الاضطراب افقد البلاد ازدهارها واطفأ شعلتها وازال لمسجد الاندلس مكانته الثقافية ، ولم يسلم المغرب من هذا الاضطراب الا حينما استولى المرابطون على المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين الذي دخل مدينة فاس سنة 462هـ بعد حصار طويل وبعد ان قتل من اهلها عددا كبيرا ، وذكر ابن ابي زرع ان ابن تاشفين قتل بجامع القرويين وبجامع الاندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف .

وفي ايامه استتب الامن في البلاد لانه كان مشتهرا بالحزم والجرأة في مجابهة المخالفين ، ولقد عمل على نشر المذهب المالكي بكل الوسائل وعمر المساجد واعطى الاوامر بعقاب الذين لا يبنونها باحيائهم ، لذلك كثرت وانتشرت فلا تمر الا خطوات حتى تجد مسجدا يذكر فيه اسم الله او يعلم فيه كتابه او يلقن فيه درس في الثقافة العامة .

الا ان الملاحظ يرى ان جامع الاندلس في ايام المرابطين فقد تلك المكانة التي كان يمتاز بها من قبل واصبح مسجدا عاديا وتوجهت عناية الدولة الى جامع القرويين ، فهذا علي بن يوسف بن تاشفين قد وسع مسجد القرويين وزينه بكثير من النقوش ووشى جدرانه بالزخارف البديعة في حين انه لم يفعل شيئا من ذلك في مسجد الاندلس ، ولعل السبب يرجع الى الظاهرة الجديدة التي اصبحت عليها مدينة فاس بعد احتلالها من طرف يوسف بن تاشفين لانه هدم الاسوار التي كانت تحجز بين العدوتين وصير المدينتين مدينة واحدة ، فقد سئم من تلك الوضعية التي كانت عليها البلاد لانها كانت تجر دائما الى التفرقة والثورة ، ويكفي فاسا ما قاسته ايام المغراويين ، ويكفيها ما شاهدته من الاهوال ايام تنافس العبيديين والامويين وان المصلحة تقضي الوحدة بين جزئيها ولم شتاتها وتوجيه سكانها الى مسجد واحد يدرسون به ، وتكون له الاهمية الكبرى في البلد ، فقر رايهم ان يكون هذا المسجد هو جامع القرويين، ولذلك، لانجد لمسجد الاندلس في عهدهم شخصية يمتاز بها دون غيره.

فلما انقضى عهدهم ، وتولى الحكم اصحاب المهدي بن تومرت رجعت له مكانته لحاجة الموحدين الى المساجد يشرحون فيها نظريتهم التي يدعون اليها ويبينون للناس مدى الفرق بين التحرر الفكري الذي يسيرون عليه وبين ما كان عليه الفقهاء ايام المرابطين، لقد استغلوا المساجد حينذاك في شرح العقيدة الاشعرية، وشجعوا المجددين الذين يعملون على نشرها، واشترطوا في الخطباء ان يكونوا عارفين باللغة البربرية بعيدين عن التقيد بمذهب مالك واصبح مسجد الاندلس يشارك بدوره في توجيه الافكار ضد المذهب المالكي سيرا مع الدولة الحاكمة التي قاومته بكل نشاط خصوصا ايام الناصر الذي بويع له سنة 595هـ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب : (وفي ايامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وامر باحراق كتب المذهب بعد ان يجرد ما فيها من حديث رسول الله (ص) والقرآن ففعل ذلك واحرق منها جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون ونوادر ابن ابي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها) قال (ولقد شهدت منها وانا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار) ثم قال (وكان قصده في الجملة محو

مذهب مالك وازالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده الا أنهما لم يظهره واظهره يعقوب هذا (*)) .

ولا شك ان مثل هذا التضييق على مذهب مالك لا يكفي فيه الضغط والاكراه بل يحتاج ايضا الى تبيين ذلك على اسس العلم والمعرفة وتلك مهمة العلماء فى المساجد واذا كان مسجد الاندلس فى تاريخه مرتبطا بحلقات دروس الفقهاء المالكيين فلماذا لا يرجع ايام الموحدين مركزا للدراسات الجديدة ؟ لذلك استقر راي الناصر الموحدي على تجديده وادخل فيه من الاصلاحات ما بقي خالدا الى الآن ، ويكفيه فخرا انه هو الذي بنى اعظم ابوابه واحسنها زخرفة تلك هي الباب المدرجة التي توجد فى جنوب المسجد .

قال الناصري (*) " (وفى سنة 604هـ ، امر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بازاء الجامع وجلب اليها الماء من العين التي خارج باب الحديد وامر ببناء الباب الكبير المدرج الذي بحصن الجامع وانفق عن ذلك كله من بيت المال) .

واصبح المسجد بعد هذا الاصلاح من اعظم مساجد فاس وتهافت الناس على التعبد فيه والاستماع الى العلماء والخطباء من منبره خصوصا فى السنوات الاولى بعد اصلاحه ان مدة ازدهاره لم تدم نظرا لوفاة الناصر الذي كان حريصا على نشر العلم ونظرا للسيل العظيم الذي جرف عدوة الاندلس سنة 626هـ فهدم من جامعها ثلاثة بلاطات وهدم دورا كثيرة وفنادق متعددة ونظرا للحالة التي كانت عليها البلد حينذاك فان الدولة الموحدية كانت فى حالة احتضار بعد موت الناصر سنة 610هـ ولم يبق لها الفراغ للعمل على رتق ما فسد انما كانت تقضي ايامها فى الحروب الداخلية التي منيت بها بسبب الخلاف الحاصل بين افرادها وبسبب اكتساح بني مرين لنواحي فاس وسبب استقلال الدولة الحفصية بتونس وبسبب المحاولة التي قام بها بنو عبد الواد فى الجزائر ليستقلوا عن حكم الموحدين لذلك بقي مسجد الاندلس مهدما فى بعض الجوانب لا تقام الصلاة الا فى جزء منه حتى اذا كانت سنة 695هـ فى ايام المرينيين عرف خطيبه وامامه الشيخ ابو عبدا لله محمد بن ميمونة الامير ابا يعقوب ابن ابي يوسف بن عبد الحق بحالته فجدده واصلحه من مال الاوقاف .

وبعد هذا الاصلاح اصبح المسجد كلية تكاد تكون مختصة بدراسة الفقه المالكي وتحليل كتبه لان رد الفعل من بني مرين كان فى منتهاه ضد الموحدين واصبحوا يحيون من جديد جميع الكتب التي احرقت فى ايامهم وقام العلماء بتدريس ذلك فى جامع الاندلس فهذا ابو الربيع سليمان الونشريسي الفاسي المتوفى فى سنة 705هـ كان يدرس بهذا المسجد كتاب التفريع لابن الجلاب والمدونة يقوم عليهما اتم قيام ولاهمية دروسه كان يحضره علماء البلد الاكفاء فقد كان يحضر مجلسه خلف الله المجاصي (*) الذي كان يحفظ المقدمات والتحصيل والبيان لابن رشد والقاضي ابو سالم ابراهيم اليزناسني (*) .

وفى عهد المرينيين بلغ ازدهار هذا المسجد اوجه لانهم كانوا يعتنون بالعلم عناية فائقة ويعملون على نشره بكل الوسائل خصوصا فى ايام ابي سعيد عثمان وابي الحسن وابي عنان فلقد بنى ابو الحسن مدرسة الصهريج بازائه ليقرب على الطلبة مشقة السير وليجعل مأواهم قرب المسجد الذي يدرسون به وكذلك بنى مدرسة السبعين وجعلها خاصة للروايات السبع فى القرءان .

ورغم ان مسجد الاندلس كان يدرس به فى هذا العهد بعض فطاحل العلماء ويخطب به فضلاؤهم فقد كان يعتبره بعض الخطباء دون جامع القرويين لذلك نرى ان ابن الحباك المكناسي المتوفى سنة 870هـ حينما كان خطيبا بالقرويين وازيل من الخطبة طولب بعد ذلك بالامامة بجامع الاندلس فابى وقال اذا كان خلعي عن تجريح فانا لا اصلح لامامة الاندلس ايضا وان

---

* المعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي .
* الاستقصاء طبعة دار الكتاب الجزء الثاني صفحة196 .
* الربع الرابع من الفكر السامي فى تاريخ الفقه الاسلامي للحجوي صفحة 70 .
* سلوة الانفاس الجزء الثالث صفحة 316 .

كان عن غير ذلك فقبولي من قلة الهمة (*) وعلق ابن زيدان على هاته الملاحظة فقال لان منصب الخطابة بالقرويين اشرف من منصب الامامة بالاندلس (*)

وبما ان البحث قد جرنا الى ذكر بعض الخطباء والمدرسين بجامع الاندلس فاني ارى واجبا علي ان اذكر من بينهم العلامة الفاضل عليا بن عبد الرحمن الانفاسي المتوفى سنة 860هـ لقد كان مطلعا على الفقه المالكي وانتفع به في قراءة المدونة جماعة من العلماء كالشيخ زروق والاستاذ الصغير النيجي والعلامة ابن غازي ذكره في سلوة الانفاس فقال : (حكي ان الناس احتاجوا في ايامه للمطر فسألوه ان يستغيث لهم ويستسقي والحوا عليه في ذلك فوعدهم ليوم ثالث من يومئذ ولما كان الغد اخرج ما عنده من الزرع وصيره صبرة في صحن جامع الاندلس ثم تصدق به وقال لهم الآن ابكي كبكاء المسلمين فاستسقي لهم فسقوا (*)) وبعد وفاته تولى الخطابة بالمسجد تلميذه ابو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن حمامة الاوربي النيجي المعروف بالصغير ذكر ابن غازي انه لازمه كثيرا وقرا عليه القرءان ثلاث ختمات آخرها بالقراءات السبعة وذكر المنجور في فهرسته انه ختم عليه القرءان بالقراءات السبعة ثلاثمائة طالب وتوفي سنة 887 هـ وبعد وفاته تولى الخطابة ابو الحسن علي بن القاسم التجيبي الشهير بالزقاق صاحب النظم المعروف بالزقاقية توفي سنة 912 هـ.

واذا تتبع الباحث هؤلاء الخطباء ايام بني مرين وبني وطاس فانه سيجدهم من العلماء المبرزين ويكفيك دليلا على ذلك ان من بينهم راوية المغرب ومفتي فاس ابا محمد عبد الله بن علي بن احمد العاصمي المعروف بسقين لقد كان مشتهرا بعلمه في الشرق والمغرب رحل الى المشرق سنة 909هـ وزار بلاد السودان وروى الحديث بمصر عن القلقشندي وزكرياء الانصاري والسخاوي ورواه بمكة عن ابن فهد وكلهم عن الحافظ بن حجر لذلك اجتمع له من العلم بالحديث ما لم يتيسر لغيره من أهل فاس (*) خطب بجامع الاندلس سنة944 الى ان توفي سنة 956هـ وهي السنة التي استولى فيها محمد الشيخ السعدي على فاس .

لقد راى محمد الشيخ ان الدولة السابقة كانت تعتني بجامع الاندلس فتختار لها من العلماء والخطباء ذوي الكفاءة والفضل فسار على نهجهم ، ولما وفد على فاس العالم التلمساني ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمان المغراوي قلده السلطان منصب الفتوى والتدريس وجعله خطيبا بمسجد الاندلس فاستمر به مدة ثماني سنوات ثم انتقل بعد ذلك الى الخطبة بجامع القرويين .

وسار السعديون على هذا النهج رغم اشتغالهم بالحروب ومحافظة الثغور ومعارضة التدخل الاجنبي، لان اهتمامهم بالعلم كان من اسس سيرتهم خصوصا في ايام احمد المنصور الذهبي الذي تولى الملك سنة 986هـ بعد الانتصار العظيم الذي حصل عليه بوادي المخازن ، وبعد القضاء على كل سعي يحاول الاجنبي القيام به لاحتلال البلاد من جديد .

وفي ايامه كان المتولي لخطابة الاندلس والتدريس به العالم الشهير يحيى بن محمد السراج الاندلسي وهو حفيد الشيخ يحيى السراج (*) صاحب ابن عباد وكان ماهرا في علوم الفقه مدرسا يعرف المدونة ويدرسها توفي سنة 1007 هـ .

ورغم اعتناء السعديين بالدراسة في هذا المسجد وباختيار احسن الخطباء له فهم لم يهتموا ببنايته ولم يصلحوه لذلك وجده العلويون في حاجة الى عنايتهم فقام المولى اسماعيل فخر الدولة العلوية ومحرر المهدية والعرائش من يد الاسبان وطنجة من يد الانجليز

---

* النبوغ المغربي لعبد الله كنون الطبعة الجديدة صفحة 585 .
* اتحاف اعلام الناس لابن زيدان الجزء الاول صفحة 313 .
* سلوة الانفاس الجزء الثاني صفحة 123 .
* سلوة الانفاس الجزء الثاني صفحة 160 .
* نفس المصدر صفحة 57 .

بتجديده وترصيفه يقول ابن زيدان في كتاب الدرر الفاخرة حين تحدثه عن المولى اسماعيل : (وفي عام 1093 هـ جدد مسجد الاندلس ورصف صحنه بالزليج يشهد بذلك ما هو منقوش في الخشب خارج قبة السقاية هناك ولفظه :

مولاي اسماعيل البنـي البهـا
فحبت ذيلي فوق كل نفيس

زهوي ببيت الله حبي مفخرا
اذ صرت اجلي فيه جلو عروس

فرفعت فوق السلسبيل سرادقا
في عام (1093 يحمل شاهد) تأسيسي

وكان ابتداء العمل فيه عام تسعة وثمانين والف هـ (*) .

وفي عهد العلويين كانت الدراسة بالمساجد تعتبر ذات اهمية كبرى وكان العالم لا يبلغ الى التدريس بها الا اذا ظهرت مقدرته العلمية وكفاءته في التلقين وكان الاستاذ قبل مهارته يلقي دروسه الاولية بالمدارس الموجودة في المدينة حتى اذا آنس من نفسه الكفاءة او آنسها منه طلبته توجه الى المسجد وذلك ما وقع بالفعل لابي العباس احمد بن علي الوجاري المتوفى سنة 1141هـ فقد كان يدرس بالمدرسة الرشيدية براس الشراطين لكن الطلبة الحوا عليه في الذهاب الى مسجد الاندلس فلبي رغبتهم واصبح استاذ اللغة في هذا المسجد واقبل الناس على دروسه وتخرج عليه جل علماء فاس ومن ورد عليها وكان يهتم بتحرير المشكلات اللغوية والنحوية وهكذا اصبح مسجد الاندلس يهتم بالدروس اللغوية كما كان يهتم من قبل بالدروس الفقهية .

وفي عهدهم تشجع العلماء على التدريس لان الدولة كانت تضفي عليهم من العطايا ما يغنيهم عن التفكير في مشاكل العيش وكانت تمكنهم من اجرة محددة تختلف باختلاف طبقاتهم وتستغل في ذلك مال الاوقاف وقد نص على ذلك محمد بن عبد الله في منشور كتبه الى سيدي التاودي بن سودة حين قال : (وكذلك الفقهاء الذين يقرئون الاسطرلاب وعلم الحساب فياخذون حظهم من الاحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة والفائدة الكبيرة لاوقات الصلاة والميراث(*))

ولقد عمل المولى محمد بن عبد الله على توجيه العلماء الى نبذ المختصرات والاقتصار على امهات الكتب قال الناصري : (ومن عجيب سيرته رحمه الله انه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيرهم واعراضهم عن الامهات المبسوطة الواضحة تضييعا للاعمار في غير طائل ، وكان يشهر في ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وامثالهما ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك) ، ويفهم من هذا النص ان المولى محمد ابن عبد الله قد منع ذلك منعا مطلقا مع اننا نراه في المنشور الذي كتبه سنة 1203 هـ الى العلامة السيد التاودي بن سودة قد اباح تدريس مختصر خليل ببعض الشروط التي تبينه وتبعد عنه الغموض وتربط بين معانيه من غير ان تخل بالاصول اتمامة فقال : (ومن اراد تدريس مختصر خليل فانما يدرسه بشرح بهرام الكبير والموافق والحطاب والشيخ علي الاجهوري والخرشي الكبير لا غير فهذه الشروح الخمسة بها يدرس خليل مقصورا ، وفيها كفاية ، وما عداها من الشروح كلها ينبذ ولا يدرس به) ولعل هذا القرار الاخير انما كان اعتدالا من السلطان محمد بن عبد الله حتى لا يثير عليه بعض بعض الفقهاء ، الا ان الذي زاد اهتمامه بكيفية التدريس بالمساجد هو المولى عبد الرحمن بن هشام فقد كان يؤسفه ان يرى العلماء يقتصرون في تدريسهم على مماحكات لفظية ويقضون

---

* الدرر الفاخرة بمآثر ملوك العلويين بفاس الزاهرة تاليف عبد الرحمن بن زيدان طبع سنة 1937 م صفحة 40-41 .

* نفس المصدر صفحة 62 .

* الاستقصاء للناصري طبعة دار الكتاب الجزء الثامن صفحة 67 .

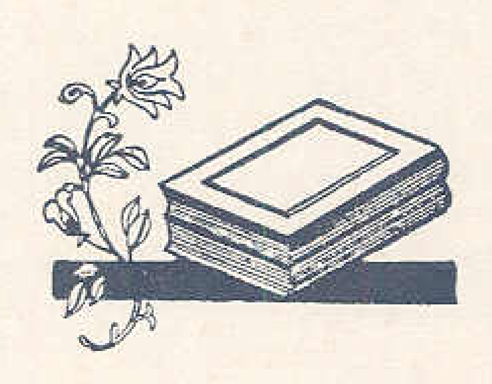
مع طلبتهم السنوات الطوال من غير طائل لذلك اصدر ظهيرا سنة 1260 ﻫ يامر فيـه العلماء ان يقتصروا فى التدريس على ما يفيد وان يبتعدوا عن تلك التشعبات فى التفكير ومن فقرات هذا الظهير قوله : ((*)). . فترى الفقهاء يكثرون على المبتدي من نقل الحواشي والاعتراضات وينوعون الاقوال والعبارات حتى لا يدري ما يمسك ، ولا سبيل يسلك ، ويقوم من مجلس الدرس اجهل مما كان ، ولا يحل زيادة مع بلوغه فى نفسه الامكان ، وهذا يؤدي الى ضياع العلم الذي هو ملاك الدين ، ويحمل على عموم الجهل فى العالمين) وبين فى هذا المنشور الطريقة التعليمية التي يجب ان يسيروا عليها ولقد سار على هديه العلماء فى جميع مساجد فاس وخصوصا بالقرويين والاندلس ، الا ان الواقع يثبت ان الاندلس فى هذا العصر انما كانت تابعة لجامعة القرويين ، ومع ذلك فقد كان يعتني بها ويختار لها من المدرسين والخطباء من اشتهروا بالعلم والفضل كابي عبد الله محمد بن الطالب التودي بن سودة المتوفى سنة 1209 ﻫ وابنه الشاعر السيد جعفر المتوفى سنة 1276 ﻫ.

وفى عهد محمد الخامس رحمه الله تجدد بناء هذا المسجد فقد قام بذلك فى سنة 1356 ﻫ ثم اعطى الاوامر فجعله فرعا تابعا لجامعة القرويين ، اما الآن وقد انتقلت الدراسة العلمية من المساجد الى الكليات الخاصة والمدارس العصرية فان مسجد الاندلس ما زال يقوم بدوره الديني ، واما الدور العلمي فقد كاد ينعدم الا من بعض المتطوعين الذين يلقون بعض الدروس النحوية او الفقهية البسيطة يعينون بها المبتدئين ، او من فئة تقوم بدروس الوعظ والارشاد تابعة لوزارة الاوقاف التي تشجع هذا الجانب الديني فى جميع مساجد البلاد وتحاول بذلك ان تعيد للمساجد قيمتها الاجتماعية فى هذا العصر الذي طغت كثير من المظاهر المادية على الناس فغيرت وجهتهم من المسجد الى المقاهي والملاهي فعسى ان تنجح فى مسعاها ، وطوبى لمن احيا بيتا من بيوت الله .

فاس ــ محمد عبد العزيز الدباغ

---

* الدرر الفاخرة صفحة 80 .



من الحلقات المفقودة في تاريخ المساجد المغربية

للأستاذ : محمد الحمداوي

كان المسجد ولا يزال ذلك المكان الذي يذكر فى معناه التثقيف العلمي الاسلامي فى كل اطواره الى جانب اقامة الشعائر الدينية الاسلامية فى جميع اشكالها وصورها ، فنحن ندرك مكانة المسجد الدينية حين نستمع الى القرءان الكريم يتحدث عن هذه المكانة ويقول « انما يعمر مساجد الله من ءامن بالله واليوم الآخر واقام الصلوة وآتى الزكوة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » وندرك مكانة المسجد العلمية حين نسمع رسول الله (ص) يتحدث عن هذه المكانة قائلا « من جاء مسجدي هذا لم ياته الا لخير يتعلمه او يعلمه فهو بمنزلة المجاهد » « ابن ماجة » ونكاد ندرك ان مكانة المسجد العلمية تكاد تكون راجحة حين نحدث فيما نحدث به عن رسول الله (ص) انه خرج ذات يوم من بعض حجره فدخل المسجد فاذا هو بحلقتين ، احداهما يقراون القرءان واخرى يتعلمون ويعلمون فقال النبي (ص) كل خير ، هؤلاء يقراون القرءان ويدعون الله فان شاء اعطاهم وان شاء منعهم وهؤلاء يتعلمون ويعلمون وانما بعثت معلما » « ابن ماجة » ، فالمسجد الحرام فى مكة والمسجد النبوي فى المدينة والازهر وعمر بن العاص والزيتونة والقرويين وغير هذه من مساجد الاسلام فى بلاد الاسلام فى الشرق وفى الغرب ظلت منذ نشاة الاسلام والثقافة الاسلامية تلك الامكنة التي لايفترق عند ذكرها العلم عن العبادة فى اذهان المسلمين وتواريخ المسلمين وتراجم رجال الاسلام العلماء والمتعبدين .

وفى المغرب الاسلامي كما فى المشرق الاسلامي كانت حركة بناء المساجد تتابع حركة انتشار الاسلام وتطوره العلمي والتعبدي ، فالمساجد التي انتشرت فى ربوع مغربنا منذ الفتح الاسلامي يكاد لا يحصيها عد ، سواء فى ذلك مساجد المدن ومساجد القرى ، وسواء فى ذلك ما اسسه الملوك ورؤساء الدول وما اسسه الافراد والجماعات والزهاد والعباد والقرئون والعلماء ، وقد ادت هذه المساجد واجبها فى نشر الحركة العلمية والثقافة الاسلامية بمختلف الوانها واشكالها مما حفظ للمغرب مكانته العلمية بين مختلف الامم الاسلامية فاذا وقفت اليوم وزارة الاوقاف المغربية الى احياء هذا التراث العلمي الزاخر ، وما اداه للمغرب من خير علمي وافر ، وذلك بتمدادها كلها او بعضها واحياء تواريخ مؤسسيها وعلمائها ، وعلى الاخص فى البوادي المغربية حيث لا يزال تاريخ الكثير من هذه المساجد مجهولا ، فانها تكون بهذا العمل قد قامت باحسن ما تقوم به وزارة اسلامية فى بلاد الاسلام فيها تاريخ حافل كالمغرب .

وهذا احد تلك المساجد المجهولة التي اسسها احد صلحاء هذه الامة الذاهبين ، ورجالها الذين آتوا مالهم يتزكى وما لاحد عندهم من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربهم الاعلى ، فادوا لامتهم ولدينهم من خدمات ما أدوا ، ثم انتقلوا الى ربهم وهم اولئك الجنود المجهولون .

اكتب تاريخ هذا المسجد مساهمة مني لوزارة الاوقاف فيما ارجو ان توفي فيه من اداء هذا الواجب، وتأدية لما على من دين نحو هذا المسجد الذي فى ساحته كان مسقط رأسي ، وفيه حفظت كتاب الله ، وفيه تعلمت كما تعلم الكثيرون من ابناء هذه الامة الذين سلكوا طرق القبائل الى هذا المسجد يطلبون العلم والتعلم ـ ما شاء الله ان اتعلم من مختلف العلوم الاسلامية التي كانت تدرس فى هذا المسجد وقتذاك .

مـؤسـس المسجـد

مؤسس هذا المسجد هو جد جميع ابناء الزاوية التاغية السيد احمد التاغي الحمداوي المتوفى ما بين سنة 1268 – 1276 ، كما يعلم ذلك من ظهير التوقير والاحترام المسلم اليه من قبل السلطان محمد بن عبد الرحمان وهو ولي عهد ، وظهير التوقير والاحترام المسلم لاولاده بعد موته من قبل هذا السلطان وهو سلطان ، ولد الشيخ في فخذ اولاد عبو من قبيلة حمداوة حيث نشا وحفظ القرءان بالقراءات السبع ثم اتصل بالشيخ العربي بن المعطي الشرقاوي واخذ عنه طريقة التصوف واتخذه شيخا له يكثر من زيارته ويشاوره في كل مهامه ، وقد كان لهذه الصحبة اثر في شروع الشيخ احمد التاغي في الارشاد والتعليم لمختلف الطلبة والاتباع الواردين عليه من جميع جهات المغرب، وقد كان يتكفل باطعامهم واسكانهم وتعليمهم ، مما جعل الكثير من قرابته يعاديه من اجل ذلك بحجة انه يحسن الى الغرباء ويترك الاقربين ، وقد حملته مضايقة اقاربه لطلبته على الرحيل الى بلدة « طاع الله » على الحدود بين قبيلة حمداوة والمذاكرة حيث اشترى ملكا نزل فيه مع طلبته واستمر هناك يعلمهم ما شاء الله ان يستمر ، الى ان رحل الى المكان الذي هو موضع الزاوية التاغية الآن على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات جنوب قصبة ابن احمد ، وهناك اسس مزرعته وبنى مسجده وانسل ذريته ، واستمر يعلم القرءان بالقراءات السبع للواردين عليه من مختلف القبائل المغربية حتى لقي ربه ، وقد كان لهذا الشيخ حظوة لدى السلطان عبد الرحمان بن هشام حيث تعرف عليه في احدى رحلاته الى مدينة ابي الجعد مع عمه السلطان سليمان حين وجده هناك صحبة الشيخ العربي بن المعطي ، والمتواتر لدى المسنين من حفدته ان السلطان عبد الرحمان بن هشام هو الذي اعانه اعانة كبرى على بناء مسجده بالشكل الذي هو عليه الآن حيث يحتوي على مسجد للصلاة والتدريس ، وخمسة بيوت لاسكان الطلبة بقطع النظر عن التجديد الذي كان يباشر به خلال السنوات الفارطة ويبدي الآن ظهير التوقير والاحترام واسقاط الكلف الذي سلمه اليه هذا السلطان سنة 1250 ، وقد جاء هذا الظهير بلفظ : « ... اسقطنا على ماسكه الاستاذ السيد احمد التاغي جميع الكلف المخزنية والوظائف السلطانية ، فلا يطالب بقليل منها ولا كثير لاشتغاله باقراء الطلبة وتصدره للاخذ عنه قراءة السبع المشاهير » .

ولما توفي الشيخ تولى اولاده رعاية المسجد والانفاق عليه وعلى الطلبة كما تولى التعليم من بعده ابنه الفقيه السيد المعطي ، ولما توفي هذا تولى الاشراف على المسجد بعده ابنه السيد الحاج ادريس بن المعطي المتوفى سنة 1308 ، وفي عهد هذا تأسست الدروس العلمية بهذا المسجد ، حيث ارسل الى فاس لتلقي العلم والرجوع الى نشره بعد التحصيل على بعثة علمية متركبة من ابنه الفقيه السيد الحاج الصغير واربعة من ابناء اعمامه هم الفقيه السيد ابو شعيب بن محمد ، والفقيه السيد محمد بن الجيلاني ، والفقيه السيد الحاج العربي بن محمد ، والفقيه السيد الحاج محمد بن محمد ، وحين انهى افراد هذه البعثة تحصيلهم العلمي في فاس رجعوا الى زاويتهم هذه وتصدروا لتدريس العلوم الاسلامية التي تخرجوا فيها على كثير من علماء القرويين في ذلك الوقت ، وعلى الاخص منهم العلامة النوازلي السيد المهدي الوزاني الذي كان يزور الزاوية التاغية في كثير من الاحيان ، ويحيي فيها بزيارته مجالس ومذاكرات علمية ، وبهذا اصبحت الزاوية التاغية ذات شهرة علمية في كثير من القبائل المغربية يتوارد عليها الطلبة من مختلف الجهات يسكنون ويطعمون ويعلمون ، وقد ادركت – حين انهيت حفظ القرءان واخذت اتعلم العلم – من شيوخ العلم بهذه الزاوية شيخنا الفقيه القاضي الحاج العربي المتوفى سنة 1359 ، وشيخنا الفقيه الحاج محمد بن محمد بن الحاج بن عباس المتوفى سنة 1363 ،وشيخنا الفقيه السيد ابو شعيب المزمزي ، وشيخنا الفقيه السيد ابو شعيب الابراهيمي ، وقد كانت الحصص اليومية التي كانت تعطى فيها دروس العربية والفقه والفرائض والتوحيد والمنطق ست حصص في اليوم ، وفي هذا المسجد حذقت كما حذق رفقائي في الدراسة في ذلك الوقت مقدمة ابن آجروم واتممت دراسة الفية ابن مالك وجزء العبادات ومعظم جزء البيوع من مختصر خليل وعلم الفرائض من مختصره ومتن ابن

عاشر وجزء كبيرا من المنطق بشرح بناني ، وقد كان يقوم بتدريس هذا الفن الاخير شيخنا القاضي الحاج العربي ، وقد انتقلت بعد ان اصبحت لدي ملكة علمية الى « زاوية النواصر » بقبيلة اولاد حريز على بعد نحو 25 كيلومترا من الدار البيضاء حيث يوجد هناك المسجد الذي كانت له هو ايضا مكانة وشهرة علمية لا تقلان عن مكانة وشهرة مسجدنا هذا ، وقد مكثت فى هذا المسجد ما شاء ان امكث قبل ان ارحل الى مدينة مراكش ثم الى فاس واخذت عن كثير من شيوخ العلم به الذين ارجو ان تتاح لي فرصة للتحدث عنهم وعن مسجدهم هذا .

ومسجد الزاوية التاغية لا يزال يؤوى الآن الكثير من الطلبة المهاجرين اليه لحفظ القرءان على يد من لا يزال يشتغل بتحفيظه من الحفظة هناك ، اما دراسة العلم فقد انقطعت مع الاسف بهذا المسجد منذ سنوات ، وذلك بموت العلماء الاولين ، وهجرة ابنائهم الآخرين الى المدن تبعا لتغير الاحوال وتبدل الظروف التي جعلت مثل هذه المساجد فى جميع انحاء المغرب تنقطع منها دراسة العلم ، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب .

وبعد فلئن اتيح لبعض اماكن العلم فى بادية المغرب من الشهرة السياسية — كالزاوية الدلائية مثلا — ما جعل مؤرخي المغرب يهتمون بذكرها ، فان الكثير من هذه الاماكن التي كانت لها شهرة علمية فقط ، لا تزال حلقة مفقودة فى تاريخ المغرب العلمي ، وانا لنرجو ان يكون ما قامت به « دعوة الحق » من رفع الستار التاريخي عن بعض المساجد المغربية وما قامت به فى سبيل نشر العلم والمعرفة فى ربوع هذه البلاد ، الخطوة الاولى لسد هذه الحلقات المفقودة حتى يتكامل التاريخ المغربي فى كل صوره العلمية والاجتماعية .

الدار البيضاء : محمد الحمداوي



الجامع الأعظم بتطوان

للأستاذ :
محمد العربي المصلاحي

انقشع الظلام ، وغردت ورق الحمام ، وتفتحت الاكمام ، واشرق نور الاسلام ، ببعثة خير الانام ، محمد عليه الصلاة والسلام ، فرفع للمساجد منارها ، واقام بنيانها ، لتكون بيوتا لله ، ومراكز لذلك النظام الجديد السماوي فيها يعبد الله باقامة الصلوات ، وجمع الصدقات ، واداء انواع القربات ، وفيها تعقد الاجتماعات لانواع الدراسات ، من علم وتعليم ومشورة وتآمر وتحاور في شؤون الدين وامور الدنيا مما جاء به الاسلام الحنيف ، وما يعود على الامة بالخير العميم .

ومن يومئذ والمسجد هو المعقل الحصين لحياة المسلمين ، يؤمونه خمس مرات في اليوم للعبادة والاتصال بربهم ، ويقصدونه للتعليم لانه اول مدرسة فاضت عليهم بالعلم الغزير ، والخير الكثير ، بل المسجد اكبر مدرسة فتحها وعلم فيها اكبر معلم عرفته الانسانية على الاطلاق ، وهو محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كما كان التلاميذ الذين تخرجوا في مدرسة المسجد اشرف وافضل تلامذة عرفهم التاريخ ومنهم الخلفاء الراشدون ، وسائر اصحاب رسول الله عليه السلام ، الذين هم اشرف طبقات هذه الامة التي هي خير امة اخرجت للناس ، وكانت مواد الدرس في هذه المدرسة هي اشرف واسمى مواد على الاطلاق ، وهي كتاب الله العزيز ونظامه المبين الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وسنة سيد المرسلين وتعاليمه الوضاءة ، وبعبارة اخرى ان المسجد هو الجامعة الكبرى التي اسستها دولة السماء الجبارة ، لتعليم اعلى المثل واروعها للبشر ، تلك المثل والتعاليم التي جاء بها الروح الامين جبريل الى اكرم معلم لتلقينها للبشرية جمعاء ، لتكون نورا للناس ، وحجة عليهم الى يوم الدين ، ومن ذلك نعرف مقدار اهتمام الاسلام والمسلمين بالمساجد وتعظيمها وبنائها وتشييدها في اول ما يشيدون ، فما وضعوا تصميما لقرية او مدينة الا وكان المسجد من اول عماراتها ، تاسيا بالمؤسس الاول محمد (ص) عند ما قدم المدينة مهاجرا فكان اول ما بدا به بناء المسجد الذي كان هو المجتمع ، والمؤتمر ، والمدرسة كما كان المسبد ثم جرى على نهجه ذلك المسلمون بعده ، وهذا ما فعله ابو الحسن علي المنظري في بناء الجامع الكبير عند ما قدم مهاجرا مع اصحابه من الاندلس ، واذن لهم محمد الشيخ الوطاسي ببناء تطوان لتكون مقرا لهم فكان من اول ما بدا به في تصميم المدينة هو المسجد جريا على تلك السنة التي اتبعها المسلمون في بناء قراهم ومدنهم ، كما اشار اليه الناصري السلاوي في الاستقصاء بقوله : (ولما عقد له الشيخ الوطاسي – يعني المنظري – على اصحابه رجع بهم الى تطاوين ، وشرع في بناء اسوار البلد القديم فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته) وكان ذلك في اواخر القرن التاسع الهجري، ومن هنا يتضح لنا ان تاريخ تأسيس الجامع الكبير كان منذ اعادة (المنظري) لتطوان التي كانت حصنا خربا يعوي فيه البوم ، فجاء مهاجرة الاندلس ، واعادوا اليه الحياة فتم ببنائه الجامع الاعظم الذي كان صغيرا بالنسبة الى ما هو عليه الآن ، وكان محاطا بالابنية ، وكان موقعه في سوق الساغين بجوار الملاح بوسط المدينة في مكان بارز ، يظهر من جميع جهات البلد بصومعته التي ترى من كل نواحي تطوان ، والتي يبلغ ارتفاعها نحو العشرين مترا ، ويحتوي سلمها على 107 درجة ، يبلغ ارتفاع الدرجة الواحدة نحو الشبر

تقريبا : وشكل الصومعة مربع ، ونصفها السفلي ابيض ، ونصفها الاعلى فيه من الجوانب الاربع ، اربع مستطيلات بيضاء مطوقة بالاجر الاحمر ، والباقي من محيط الصومعة ملبس بالزليج الاخضر ، ما عدا القمة فانها حمراء وسطحها المحدد الراس مسقفا بالقرميد الاخضر ، وفى النصف الاسفل من الصومعة بيت صغير للساعات يحتوي على سبع ساعات كبيرة متفاوتة فى القدم ، وفيه بيت آخر للموقت احد بابيه الى جهة سطح المسجد ، والثاني داخل الصومعة .

وظل هذا الجامع يقارع السنين ، ويعارك الزمن، ويقوم بحاجات اهل تطوان من عبادة وعلم وتدريس وغير ذلك من خدمات حتى سنة 1223 فهيأ الله لــه ذلك الملك الصالح (مولاي سليمان) الذي كان مجبولا على حب الخير والسهر على مصالح الامة خصوصا ما كان منها يتعلق بالعلم والدين وتشييد معاهده ومساجده فقد كان من صالح افعاله وجليل اعماله التي توجهت اليها عنايته ، بناء وتجديد عدد كبير من المساجد كان من جملتها الجامع الكبير بتطوان ، فانه امر بتجديده وتوسيعه فهدم واضيفت اليه المدرسة المجاورة وبعض الرباع الموالية ، وكانت المدرسة مدرسة الفقيه الروشة عددا من الحجرات لسكنى الطلاب ، وفى تلك السنة أي سنة 1223 اعيد ذلك المسجد بعد ما ابعد عنه اليهود الذين كانوا يسكنون بجواره فى الملاح البالي وكان اليهود قد اتهموا بسرقة ماء المسجد الذي كانت انابيبه تمر بدورهم تحت الارض فقطعوها ، وبقي المسجد مدة من الزمن بلا ماء حتى علم بذلك ، وكرهت اقامتهم بجوار المسجد فاقتطعهم مولاي سليمان الملك ارضا خارج المدينة ما بين السور والمصلى القديم والفدان ، وبعد ان رضي اليهود الارض الجديد وشهد عليهم العدول وامضى ذلك رؤساؤهم ، بنى لهم الملاح الجديد ولا يزال حتى الآن .

هذا وما زال الجامع الكبير موضعا للمهام الجسام التي كانت للمساجد الاسلامية من قبل في سائر الامصار ، فقد كان معهدا دينيا لتخريج العلماء والمرشدين ، وكانت وفود طلاب العلم تتوارد عليه زرافات ووحدانا من مختلف القبائل المجاورة ولما انتظمت مدرسة لوقاش المعروفة ، لم يكن لطلابها موضع يتلقون فيه دروسهم احسن من الجامع الكبير الذي كان المنهل الوحيد العذب لمختلف المشارب العلمية من وعظ ودرس وغير ذلك ، كما كان محلا لتلاوة الظهائر السلطانية وتلقي الاحكام الملوكية واول من تولى الامامة فى هذا المسجد بعد بناء السلطان مولاي سليمان له هو السيد محمد بن محمد الحراق ، وفى السنين الاخيرة سار الجامع الكبير معهدا للتعليم الديني الاسلامي ، وكان يبلغ طلابه احيانا الى المئات وكانوا يتقاضون جراية نقدية قدرها ثلاثة ريالا حسنية لكل واحد منهم علاوة على الخبز وتبرعات المحسنين ، وكانت تلك الجراية من احباس الجامع ، ثم اخذت قيمة الجراية ترتفع بتقدم الزمن الى ان بلغت نحوا من 750 فرنك للطالب وذلك فى سنة 1947 م بعد ما اتسع منهاج التعليم الديني وعين له عدد من الاساتذة ومقدار من المال لاعانة الطلاب ، وللنفقات الاخرى التي كانت تنفق على المسجد كنفقات قراء الحزب ، والمنح التي تعطى لحفاظ كتاب الشيخ خليل عن ظهر الغيب ليقوموا بتلاوته فى الجامع الكبير ، ورواتب الوعاظ ، وما ينفق على قراء الادعية ، ثم هناك نفقات اخرى للجامع كالفرش والحصر والترميم والتبييض والاصلاح وشراء المصاحف للتلاوة وما الى ذلك ، وبالجملة فنفقات الجامع السنوية تبلغ نحو 700 13 درهم مغربية ، وله احباس مختلفة قديمة وحديثة لم نتمكن من معرفة مجموع ما تغله .

وبناء الجامع يكاد يكون مربعا ، بل نقول على التحقيق انه مستطيل من الشرق الى الغرب ، وتبلغ مساحته 768,35 من الامتار المربعة ، اما ارتفاعه فيبلغ 10 امتار تقريبا ، وسقوف بلاطاته محدودة على شكل ظهر الحيوان مغطاة بالقرميد الاخضر وله ثلاثة ابواب ، واحد ينفذ الى جهة الجنوب وهو الباب الكبير العام للمسجد ، وهو مرتفع كثير النقوش والزخارف الملونة التي جملته غاية فى البداعة وحسن المنظر وامامه فانوس براق ذو لون ذهبي معلق فى سقف الشارع ، اما البابان الاخران الشمالي والغربي فليس فيها ما يستغرق من الفن والصنعة ، ولكنهما يشاركان الاول فى الكبر والسعة والارتفاع — وفى مدخل الباب الغربي رواق مستطيل من الجنوب الى الشمال مبلط بالرخام ، قد صنعت فى جانبيه انابيب للوضوء كتب فى اعلى كل جانب منها تاريخ بنائها الذي هو تاريخ الاصلاحات الاخيرة 1359 والصورة توضح لك كل ذلك .

واهم جدران المسجد هو الجدار القبلي لما فيه من الاشياء التي تستحق الذكر ، ففي اعلاه مما يلي

السقف ست طاقات على اشكال مستطيلة فى عرض الجدار ، تنير داخل المسجد وتمده بالهواء ، وهي من الاصلاحات المتأخرة التي زانت المسجد واكسبته بهجة فضلا عما فيها من الفوائد الاخرى ، وكل هذه الطاقات مبوبة بأبواب زجاجية ترتبط قطع كل باب منها بنجمتين خشبيتين مسدستي الشكل ، وفى اسفل الجدار طاقة اخرى كبيرة قرب الارض مما يلي الركن الجنوبي للجدار ، وعلى يسار هذه الطاقة خزانة ، وعلى يسار الخزانة المنبر وهو من المنابر المرتفعة الكثير الدرج المصنوع من جيد الخشب مزينا بالنقوش البديعة الجميلة يعتمد فى اسفله على عجلات حديدية يندفع بها الى مخدعه فى الجدار ويغلق عليه بباب يتساوى مع الجدار فيحسبه الناظر خزانة او بابا من الابواب ، ثم على يسار هذا المنبر ذلك المحراب الجميل الذي يعد آية من آيات الفن المغربي البديع لما فيه من النقوش الرائعة ، والالوان البراقة المذهبة الصفراء تؤازرها اخرى حمراء وخضراء كل ذلك فى تناسب واتقان يسر الناظرين ، ويشمل المحراب من السقف الى الارض ، وفى اعلاه مما يلي السقف نقش بخط جميل مذهب ، (بسم الله الرحمن الرحيم ، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) واما على باب المنبر وباب المقصورة فقد كتب بخط كوفي عريض مربع بلون ذهبي كلمة الشهادة (لا اله الا الله محمد رسول الله) هذا علاوة على النقش والزخرفة ذات الالوان الساحرة ، وجاء فى تاريخ تطوان ان ثرية عظيمة نحاسية بلغت حدا كبيرا من حسن الصنعة كانت معلقة امام المحراب فى سقف المسجد ذهبت بها يد الضياع فيما ذهبت به ، ويقال ان الجامع الكبير اصابه ما اصاب غيره من مساجد تطوان من المحن بعد استيلاء الاسبان على البلاد ، فانهم عاثوا فيها فسادا وهوانا وداسوا المساجد ، واتخذوها مرابط واصطبلات لخيولهم فاصابها من التلف والتشويه ما اصابها فالله اعلم .

وبعد المحراب وعلى يساره المقصورة ، وهي عبارة عن دار صغيرة تحتوي على حجرة للجلوس وصحن صغير فيه فوارة للماء ، ومرحاض ، وبيت صغير للمتاع ، ومكتبة قيل عنها انها كانت من اهم خزائن الكتب المغربية ، وكانت معروفة بمكتبة الجامع الكبير ، وكانت تتوفر على مقدار هام من المخطوطات التي عصفت يد الحدثان باهمها ، وكانت تلك المكتبة عدة قوية يعول عليها المدرسون وطلبة العلم ، فتتبعها الزمن بالتلف ، وما سلم من تلك الكتب نقل مع ادارة المعهد الاسلامي الديني الى دار ابن عبود بالملاح البالي حيث هي الى الآن ، وتلك مكتبة الجامع الكبير فيما مضى ، تحولت الآن مكتبة المعهد الاصلي ومما يفتخر به الجامع الكبير انه كان اول ادارة ومدرسة للمعهد الديني حتى نما وترعرع بين سواريه ، ولا يزال بعض فصوله فى الجامع حتى الآن .

ومن اشهر كتب الجامع الكبير المخطوطة ما يلي :

1) نسخة ناقصة من صحيح البخاري اجزاؤها من 6 الى 11 ، حبسها الفقيه سيدي الحاج عبدالكريم بن الحاج عبد الله السقاج التطواني بتاريخ 1215 / 1216 / 1223 ، ورقم الكتاب : 910 /914 .

2) فتح الباري 14 جزءا حبسه السلطان مولاي الرشيد على الجامع الكبير بتاريخ 1364 ورقمه 889

3) نسخة من صحيح البخاري اجزاءها من 1 الى 3 ، حبسها مولاي محمد بن عبد الله سنة 1184 هـ ، ورقم الكتاب 88 / 883 .

4) شرح الخرشي على الشيخ خليل واجزاءه 5 حبسه مولاي محمد بن عبد الله سنة 1198 ، ورقمه 894 .

5) شرح المواق على مختصر خليل جزآن ، حبسه مولاي محمد بن عبد الله سنة 1198 ، ورقمه 866 / 867 .

6) صحيح البخاري جزآن ، حبسه محمد بن المهدي اليزيد سنة 1206 هـ ، ورقمه 900 .

7) صحيح البخاري جزآن ، حبسه مولانا على سنة 1184 ، ورقمه 899 .

وفى المكتبة ، مكتبة المعهد العالي الاصلي او – على حسب الاصل – مكتبة الجامع الكبير مصحف خطي تاريخي نادر ، وكتب اخرى غير ما ذكر ، ومما يعرفنا بما كان لهذه المكتبة من الاهمية ، ما كان يقدمه اليها ملوك المغرب من هدايا الكتب القيمة فقد جاء فى التاريخ ان مولاي رشيد هدى للمكتبة – بالجامع الاعظم بتطوان

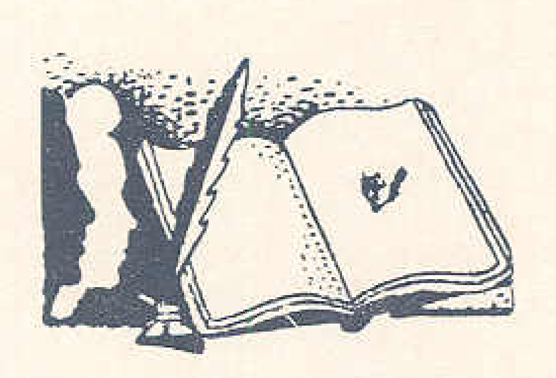
كتبا ويذكر الناصري صاحب الاستقصاء في ج 4 ص 98 — ان السلطان مولاي محمد بن عبد الله امر بتحبيس اثنى عشر الفا من الكتب على مختلف مساجد المغرب كلها في سنة 1175 هـ ، ويقول انه كان للجامع الكبير بتطوان نصيب منها ، وقد اثبتت بعض نماذج لرسوم التحبيس ، المنقولة عن الصفحات الاولى لبعض تلك الكتب المحبسة ، من السلطان المذكور في تاريخ تطوان وهذا يدلنا دلالة واضحة على مقدار عناية السلف المغاربة من ملوك ورعايا في تكوين الثروة العلمية وحفظها في المكاتب والمساجد ، التي اهملها الخلف ، شانهم في كل ذخر وكل مجد ، فالحكم لله العلي القدير الذي لا يتبدل له حكم ولا امر .

ولنعد الى الكلام على بقية الجامع فنقول : (ان على يسار المقصورة طاقة غير نافذة وعليها باب على نمط باب المقصورة وابواب بقية الخزائن الاخرى من البداعة والفن ، وعلى يسار هذه الطاقة خزانتان ثم في الجدار الشمالي بازاء الركن خزانة ثالثة مليئة بالمصاحف واما الجدار الجنوبي ففيه بيت لحفظ آلة مكبر الصوت وبعض الامتعة الاخرى ، وفي نفس الجدار ساعة كبيرة مثبتة في داخله ، وعليها شباك حديدي كالباب يحفظها مما عسى ان يصيبها ، وفي اعلى هذا الجدار نافذتان على شكل النوافذ التي في اعلى الجدار القبلي تزيدان في نور المسجد وانشراحه .

وفي المسجد خمسة صفوف من الاعمدة ملبسة الاسافل بالخشب المدهون ، يحتوي كل صف منها على سبعة اقواس وسبعة اعمدة ، وفي المسجد سبع بلاطات تتراوح مساحاتها ما بين 120 و 53 من الامتار المربعة .

وللمسجد صحن مكشوف مبلط بالرخام الحر ، ومحاط بسياج منه ، وفي وسطه فوارة (خصة) للماء مطوقة بسياج من المرمر على شكل نجمة مثمنة الاضلاع، وكان فرش هذا الصحن وفوارته من الاصلاحات المتاخرة التي ادخلت على المسجد كما يدل على ذلك تاريخها المنقوش على رخامة في الجدار فوق انابيب الوضوء ، وهو سنة 1359 هـ ، وتبلغ مساحة هذا الصحن بالامتار المربعة 34 , 236 م وقد شاهد هذا المسجد عددا من العلماء من ائمة ومدرسين منهم الحراق ، والزواق ، والرهوني وغيرهم من اهل الفضل فسبحان من يغير ولا يتغير ، ومن بيده الامر كله .

محمد العربي الهلالي



جامع شفشاون الرويبي

للأستاذ سعيد اعراب

كان القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي – بالنسبة للمغرب ، عصر الاحداث والآلام ، وعهد التدهور والانحطاط ، ففيه سقطت دولة الاندلس (الفردوس المفقود) وفيه تكالب العدو على شواطيء المغرب ، واحتل اهم ثغوره كسبتة وطنجة وما اليهما ، ولم يكن هناك حاكم حازم ، ولا ملك رشيد ، بل كانت الفوضى تضرب اطنابها فى طول البلاد وعرضها ، وساد الجهل وانتشر الفساد ، وضعفت الهمم ، واستسلم الناس للخرافات والاوهام.

فى هذا الجو المضطرب ، وفى هذا الظرف الحالك، قام جماعة الاشراف العلميين ، بشمال المغرب ، يذبون عن حوزة البلاد ، ويطاردون العدو فى الجبال والاوهاد، واسسوا جبهة قوية ، يحسب لها حسابها ، وظلوا رافعين راية الكفاح نحو قرن كامل ، وفى حدود سنة 876 هـ نزلوا بسفح جبل اشاون – والشاون فى لغة مازيغ : قرون الجبال ، واختطوا مدينة شفشاون على بعد مسيرة يوم من جبل العلم (مسقط راسهم) بقصد تحصين المسلمين ، ورد عاديات العدو ، وكان من اشهرهم ذكرا ، وابعدهم صيتا الامير ابو الحسن علي بن راشد المتوفى سنة 917 هـ الذي بنى مدينة شفشاون الحالية ، وشيد قصبتها ، واوطنها باهله وعشيرته ، ونزل بها الناس فبنوا ، وصارت فى عداد المدن المغربية (*) . ومن هذا الحصن المنيع كان بنو راشد يوجهون الى العدو ضرباتهم القوية ، وهجوماتهم المتوالية ، وكانت لهم جولات موفقة فى ميدان البطولة خلدت اسمهم الى الابد ، قال فى المرآة ص 86 \ 187: (ولم يزل اولاده بها بين سلم وحرب ، الى ان حاصرهم الوزير ابن عبد القادر بن محمد الشيخ بجيوش عمه الخليفة محمد الغالب بالله وصاحب شفشاون يومئذ الامير ابو عبد الله محمد بن راشد ، فلما اشتد عليه الحصار ، خرج فيمن اليه من اهله وولده وقرابته ، وساروا الى ان وصلوا ترغة (من غمارة) ومنها ركبوا البحر يوم تاسع صفر 969 هـ واستقر الامير بالمدينة المشرفة الى ان مات بها) وفى ايام الامير ابي عبد الله ابن راشد هذا وحوالي منتصف القرن العاشر الهجري بنى الجامع الاعظم بشفشاون ، بناه الامير فى جملة ما بنى الى جانب قصبة والده المولى علي بن راشد ، وقد كثر الواردون على شفشاون ، وهاجر اليها جماعات من الاندلسيين ، وقد امرهم الامير محمد بن راشد ان ينزلوا فوق ساقية العنصر ، حتى لا يضايقوا السكان الاصليين فى السقي ، واسسوا حومة خاصة بهم تعرف – الى اليوم – بريف الاندلس ، وكان بالقصبة مسجد صغير ، لم يعد يفي بحاجة المصلين ، فاصبح الناس فى حاجة الى جامع كبير ، ويقع الجامع الاعظم بجنب برج القصبة يفصل بينهما الطريق المار على ربوة عالية تتربع على وطاة الحمام (السويقة) الحومة الاولى للبلد ، وتطل على المدينة من سائر جهاتها ، وكانت فى الاصل موضع (الدر) لرجل من بني جبارة يدعى اللحيح ، والجامع يتالف من قسمين : بيت الصلاة ، والصحن ويشتمل بيت الصلاة على اربعة بلاطات عرضية من الجنوب الى الشمال ، يفصل فيما بينهما عقود من نصف دائرة ، متجاوزة بعض الشيء (اقواس بيضية تقوم على اعمدة ، وهذه البلاطات تختلف عن بعضها البعض فى الطول والعرض هكذا : (1) 30 و 15 على 40 و 2 م – (2) 30 ، 17 على 40 ، 2 م – (3) 75 16 على 75 ، 2 م – (4) 50 ، 15 على 50 ، 2 م) وللجامع اربعة ابواب :

(*) مرآة المحاسن – العربي الفاسي ص 186

1) الباب الرئيسي : وهو الى جهة الغرب ، ويسمى باب الحمراء .

2) باب الجنائز : وهو الى جهة الشرق ، وكانت تخرج منه الجنائز بعد الصلاة عليها داخل المسجد .

3) باب الوضوء : وهو الى جهة الشمال ، ويخرج منه الى مكان الوضوء ، ويقابله من الخارج باب القصبة .

4) باب المدرسة : وهو الى جهة الجنوب ، وينفتح الى صحن المدرسة المجاورة للجامع ، وعلى يسار الباب الرئيسي للمسجد مكان الصومعة ، وكانت في اول امرها مئذنة صغيرة غير مرتفعة ، واسس الامير ابو عبد الله ابن راشد — الى جانب الجامع — مدرسة صغيرة تتصل مباشرة بالجدار الجنوبي منه ، وتعرف عند العامة بالمدرسة ، وتذكرها بعض الوثائق الوقفية بمدرسة شفشاون (※) ، والمدرسة على شكل مربع تحيط به بيوت لسكنى الطلبة وتتالف من طابقين اعلى واسفل ، يتوسطها صحن كبير في نحو 16 على 17 م .

وفي وسطه فوارة (خصة) وتتخلله بعض الاشجار ولم يبق منها الآن سوى اشجار الرنج ، وينفتح في الجدار الجنوبي للجامع — كما اسلفنا — باب الى المدرسة ، وكان هناك ممر من المقصورة الى المدرسة ، وكان بالصحن الى جهة القبلة رواق ومحراب صيفي (العنزة) وفي الاصلاحات الاخيرة للمدرسة ازيل كل ذلك ، وسد الباب الذي كان يؤدي الى المقصورة ، ودفن بصحن المدرسة الى جهة الشمال ابو عبد الله محمد الغالي بن الشاهد العلمي ، وكان من المدرسين البارزين ، تولى قضاء شفشاون ايام ابن عبد الكريم الخطابي ، وكتب على رخامة فوق قبره انه توفي ليلة الاربعاء 18 صفر عام 1348 ه وبالقرب منه ابن عمه محمد العربي العلمي .

والباب الرئيسي للمدرسة في الجدار الغربي — الى جهة الجنوب ، ويقابله من الخارج دار القاضي (ابو الحسن الشريف العلمي النوازلي) .

ومدخل المدرسة على هيئة مرفق منحن في تخطيطه ، شأنه في ذلك شأن مدخل الدور المغربية ، وبجانبي المدخل محكمة القاضي ، وبيت العدول ، ويؤدي المدخل من الجنوب الى الميضاة ، ومراحض الطلبة .

اما الجامع فظل على صورته الاولى الى ان ولي قضاء شفشاون ابو العباس احمد بن الشريف العلمي سنة 1012 ه ، وقد اتسعت دائرة المدينة ، وتعددت حومات البلد ، فكانت هناك — زيادة على حومة السويقة الحومة الاولى كما سبق — حومة ريف الاندلس ، وريف الصبائين ، وحومة العنصر ، وحومة السوق ، والخرازين وما اليها . .

وربما كان لكل حومة مسجده الخاص ، ولكن الجمعة للعتيق ، وقد اضحى المسجد العتيق لا يتسع للمصلين ، فاستأذن القاضي ابو العباس — وكان اماما وخطيبا ومدرسا بالجامع — سلطان العصر في توسعته ، ولعله زيدان بن المنصور السعدي ، وكان زيدان — وهو العالم الاديب — في حاجة الى الدعاية والى من يلتف حوله من العلم والفضل ، وقد انتثر عقد الدولة السعدية ، وتنازع الملك جماعة من ابناء المنصور واخوته . . فاذن له زيدان في ذلك ، وساعده بقدر كبير من مال الخراج واغتنمها فرصة لاستلال الضغائن ومحو الحزازات التي تركتها اعمال عمه الغالب بالله في نفوس اهالي شفشاون عموما ، والعلميين بصفة خاصة فزاد القاضي في الجامع زيادة مهمة ، وكان مما زاده في طول الجامع الى جهة الشرق — اربعة بلاطات عريضة موازية لجدار القبلة .

وهي اطول من البلاطات الاولى ، وعقودها اكثر ارتفاعا ، واوسع عرضا ، وهذه البلاطات تختلف ايضا عن بعضها البعض في الطول والعرض هكذا : 5) 18 م على 40 ، 2 — 6) 35 ، 19 م على 40 ، 2 — 7) 20 م على 45 ، 2 — 8) 65 ، 20 م على 20 ، 3 .
وتتقاطع البلاط الاخير المحاذي لجدار القبلة من المحراب الى الجنوب عقود تتجلى فيها روعة الفن المغربي ، وبطبيعة الحال فان البلاطات الاربعة التي زيدت في الجامع ، قد شغلت الصحن القديم ، فكان من الضروري ان يقام للجامع صحن جديد ، ويمتد الصحن على الجدار الشرقي في نحو 18 م على 12 م ومن اعلام شفشاون الذين دفنوا بهذا الصحن القاضي احمد بن الحسين العلمي المتوفى سنة 1315 ه وبجانبه ولده

※) حوالة الجامع الاعظم ج 1 ص 16 وثيقة 18 — — وص 61 — وثيقة 59 .

عبد السلام ، وينفتح في الجدار القبلي للجامع بابـان أحدهما على يمين المحراب ، الى المقصورة ، والآخر على يساره الى الصحن ويتوسط الجدار الشمالي مصلى النساء ، وفي الاصلاح الاخير للجامع سد باب هـذا المصلى ، وجعل مكانه فوارة (خصة) للوضوء وقطع المصلى من المسجد وصار مع الاسف حانوتا لاسكافي ، على انه حجز النصف الشمالي من البلاط الاول لصلاة النساء بحاجز خشبي مما جعل المسجد يفقد شكلـه الهندسي ، وصورته الفنية ، وكم نود ان تكون هـذه الاصلاحات التي تقام بالمساجد والزوايا تحت رقابة خاصة لادارة فنية لها اختصاصها في الآثار القديمة ، والفنون الجميلة ، وكم يعز علينا ان يضيع الكثير منها بسبب التهاون والاهمال فمنذ سنتين او ثلاث سقط جانب من صومعة مسجد (اشرافات) على بعد 35 كلم من شفشاون ، وربما كان اقدم مسجد بالمغرب ، بناه طارق بن زياد ايام ولاية ياصف بن عبد الملك بن اباد بن عثمان على هذه الجهات أواخر القرن الاول الهجري(*) وقد هدمت الصومعة بالمرة ، واعيد بناؤها على شكل جديد ، لا يتفق وصورة هذا المسجد التاريخي ، وكم له من نظير ؟ وجدران الجامع والمدرسة مبنيـة بالطبية) وسقفها كباقي دور المدينة بالقرمود الاحمر ومن الداخل بالخشب المنجور المزخرف .

وفي ايام سلطة القائد احمد الريفي على تطـوان وشفشاون وما اليهما (84 \ 1090) ادخلت بعض الاصلاحات على المدرسة ، وتذكر بعض المصادر الاجنبية انه في هذا التاريخ نقل الى مدرسة شفشاون قـدر كبير من الزليج والرخام الاندلسي .

وفي عهد ولاية القائد ابي محمد عبد القادر البردون البوفراحي على شفشاون اواخر القرن الحادي عشر، صنع منبر كبير للجامع ، وثريا خشبية على شكـل هرمي ، علقت امام المحراب ، وقد كتب على لوحـة بالدرج الاخير من المنبر : (الحمد لله صنع هذا المنبر السعيد سنة 1098 هـ) ، وجدد تنميقه سنة 1351 هـ) وكان للقائد الريفي عبد القادر البردون اهتمام زائـد بالمدرسة وبالطلبة الساكنين بها .

وفي أوائل المائة الثالثة عشرة ، اتسع عمـران المدينة ، وغدا الجامع الاعظم ـ وهو الوحيد ـ لا يكفي بالطبع لمئات المصلين ، بل الآلاف ، فاحدثت اغطيـة بجامع الخرازين ، ومسجد ريف الاندلس ومما يلاحظ ان شفشاون منذ هذا التاريخ اصبحت تابعة لتطوان سياسيا ، ولم تزل كذلك الى اليوم الا في فتـرات من التاريخ . وفي ايام الناظر محمد بن قاسم شهبـون بنيت صومعة الجامع الاعظم بشفشاون وبـاع الناظر من أجل اقامتها بعض حوانيت الجبس بالسويقة ، وقد استغرقت مدة البناء نحو سنتين ، ويقال ان الـذي تولى بناء الصومعة هو المعلم العاقـل الاندلسـي ، ولا يزال الاجداد يروون للاحفاد قصته مع ولده الـذي أخطأ في شيء من البناء ، وقد اشرفت الصومعة على الانتهاء ، فلطمه الوالد لطمة القت به من اعلى الصومعة فبقي معلقا وقد اقيمت الصومعة بمكان المئذنة الصغيرة على يسار الباب الرئيسي للجامع الى جهة الجنـوب كما سبق ، وقاعدة الصومعة مربعة ، ولكنهـا بعـد ان استوت مع سقف الجامع في نحو ستة امتار صـارت مثمنة ، وبجدرانها من الخارج فتحة ضيقـة تشبـه منافذ السهام ، الغرض منها مد الدرج بالضوء ، وينفتح في وسط المئذنة الى جهة الجنوب ـ باب الى غرفـة المؤقتين ، وقد بنيت في الطابق الاعلى من المدرسة ، وعلقت بها مجانات (ساعات) ويلاحظ ان اقدم هذه الساعات يرجع تاريخه الى سنة 1256 هـ وفي نهايـة المئذنة شرفات ويعلو سطح المئذنة (صار) في نحـو خمسة امتار مثمن كالصومعة وقد صعد معه عمود من حديد تعلق به الرايات التقليدية .

والصومعة آية الفن الاندلسي المغربي ، وفي سنة 1255 ادخلت اصلاحات على مراحض المسجد وجـر ماؤها في القواديس الى الخارج . وكانت هناك خزانة تابعة للجامع ، حافلة بالكتب العلمية والدينية ، الغرض من تحبيسها القراءة والمطالعة والنسخ ...

وقد لقيت هذه المؤسسات ، سواء منها الدينية والثقافية ، عناية فائقة من مختلف الطبقات ، فكانت هناك اوقاف الجامع ، والمدرسة ، والخزانـة ، وكان للامام والمؤذن والمدرس والخطيب اوقاف ، وللطلبـة أوقاف ، وللقيم أوقاف وهلم جرا ... وقلما تجـد عائلة من العائلات او شخصية من الشخصيات ليـس لها وقف على الجامع او المدرسة او عليهما معا .

(*) مجلة النص ـ العدد الرابع ص 14 ـ السنـة الثانيـة .

ونجد فى الطليعة ابناء راشد الامراء ، وابناء عرضون قضاة شفشاون ، وابناء الشريف العلمى سدنة المسجد والمدرسة .. وقد تكاثرت الاوقاف داخل المدينة وخارجها ، فى القرية القريبة والنائية ، وفى كل جهة من الجهات ، واتسع نطاقها ، وتنوعت مصالحها حتى لقد كان فى بعض الاحيان ، للجامع ناظر ، وللمدرسة ناظر آخر . واذا كان ملوك الدولتين الوطاسية والسعدية ، حاربوا الاشراف العلميين ، وهاجموا المدينة الراشدية غير مرة ، وضايقوا اهلها ، وحطموا بعض دورها ؛ فقد كان للملوك العلويين اهتمام بالغ وعطف خاص على هذه المدينة واهلها ، وكان لهم اوقاف على مساجد شفشاون عموما ، والجامع الاعظم بوجه خاص ، ومن مظاهر هذا الاهتمام وهذا العطف — ما جاء فى ظهير للسلطان محمد بن عبد الله مؤرخ بـ 9 قعدة عام 1183 — : يعلم من هذا الكتاب الكريم اننا امضينا الامر فى الحمام الذي بمدينة شفشاون للجامع الكبير الذي هناك ، رجعلناه من جملة اوقافها بحيث لا يتصرف فيه الا ناظر الجامع المذكور ، وصرف مستفاده من ضرورية الجامع كغيره من الاحباس ، من غير منازع ولا معارض وكل من يرد على المدينة الشفشاونية من جميع القبائل بقصد الاستيطان والاقامة فهو من جملة اهلها يلزمه ما يلزمهم اجمالا وتفصيلا ، وان اقام بين ظهورهم شهرا او دونه فهو منهم ، ولا يطالب بوظيف مع اخوانه خارج المدينة ، واهل شفشاون منهم الينا ومنا اليهم ، ولا واسطة بيننا وبينهم ، فهم خدامنا ومحسوبون علينا ، ولهم منا — ان شاء الله — ما يحمدون عاقبته فى الحال والمال والسلام . (✻) واصدر السلطان محمد بن عبد الرحمن مرسوما يقضي بأن يجعل للجامع الكبير عشرة مثاقيل فى كل شهر من مستفاد « الكنطردات » ويدفع لناظر الجامع الكبير (✻)) وفى ميدان تشجيع العلم واهله فقد اصدر السلطان المولى سليمان امره بتنفيذ ثلاثين اقية فى كل شهر للفقيه عبد السلام بن الاستاذ سعيد زنبار الجباري) .

ويدل على مدى عنايتهم بهذه الاوقاف ، التي تعتبر كضمانة للشعائر الدينية ، وحرصهم الشديد على ان ما يضيع منها ولو درهم واحد — ما جاء فى مرسوم للسلطان محمد بن عبد الرحمن مؤرخ بـ 22 جمادى الاولى عام 1281 هـ — وبعد : فان ميزانا للاحباس باشاون كان ناظرها يحصل فيه ما بين السبعين والتسعين مثقالا ، ولما يمت المستفادات المخزنية ، حيز من جملتها وبيع ، ولا بد ان تامروا مشتري المستفادات بالشاون ان يدفع مائة وعشرين مثقالا للناظر من ثمن كراء المستفادات (✻) والامثلة من هذا كثير . وللقائد الريفي عبد القادر البردون السالف الذكر عدة اوقاف على الطلبة الغرباء الساكنين بالمدرسة وكانت تصرف فوائدها عليهم فى شبه نظام الخبزة بجامع القرويين واسهم فى هذا الميدان كثير المحسنين والمحسنات مما شجع اقبال الطلبة على العلم ، وازدهار الثقافة والمعرفة بهذه الديار .

اما الخزانة فقد تنافس العامة والخاصة في الوقف عليها ، وهناك طائفة من علماء شفشاون جعلوا مكتباتهم حبسا معقبا على خزانة الجامع الاعظم ، ومن الوثائق الوقفية فى هذا الصدد : الحمد لله حبس الواضع اسمه عقب تاريخه (القاضي محمد بن محمد البرنوس) على اولاد الذكور دون الاناث . جميع ما هو ملكه من الكتب الفقهية ، والنوازل الشرعية ، والاحاديث النبوية .. وغيرها من كتب العربية واللغوية ينتفعون بها بالقراءة والمطالعة فان انقرض الجميع رجعت للمسجد الاكبر بشفشاون ينتفع بها طلبة العلم بالمطالعة ، والمدارسة ، والمناسخة .. حبسا مؤبدا فى 2 حجة متم عام 1194 هـ . وحتى النساء والعوام فقد كانوا يشترون الكتب العلمية والدينية ويوقفونها على خزانة الجامع بقصد الانتفاع بها تعلما وتعليما ، ومن هذه الوثائق الوقفية : الحمد لله بعد ما اشترى الحاج محمد بن العربي شابوء والحاج عبد القادر المسال .. جمع السفر الواحد المسمى بالدرر السافرة فى امور الآخرة ، تاليف السيوطي ، اشتراء تاما اشهد اذ ذاك المشتريان المذكوران انهما حبسا الكتاب المذكور على خزانة

✻) حوالة الجامع الاعظم ج 1 ص 202 وثيقة 199.

✻) حوالة الجامع الاعظم ج 2 ص 72 وثيقة 62

✻) الحوالة ج الثاني ص 72 — وثقية 62

✻) الحوالة ج 1 ص 98 — وثيقة 107

✻) الحوالة ج 1 ص 1

الجامع من محروسة شفشاون ــ امنها الله ــ ينتفع بـه فى المسجد المذكور بالسرد على الكرسي بالمسجد المذكور وغيره من أوجه الانتفاع .. فى اواسط رجب الفرد الحرام عام 1208 هـ) وقـد احتفظت لنا بعض دواوين الحبس بقائمة من الكتب التي اوقفتها فاطمة بنت المقدم وهذه طائفة منهـا :

- نسخة من صحيح البخاري ــ فى عشرة اجزاء ــ بخط الفقيه ابن سودة .
- فتح الباري على البخاري للحافظ ابن حجر ــ فى تسعة أسفار .
- التوشيح على الصحيح ، حاشية للسيوطي على البخاري .
- شرح العمدة فى الحديث لابن الاثير .
- سيرة الكلاعي بخط القاضي محمد مخشان .
- شرح ابن أبي جمرة بخط الفقيه ابن رحمون نسخة اخرى بخط القاضي محمد البرنوسي .
- السفر الاول من موطأ مالك ، مجموع فى الطب به منظومة لابن الخطيب فى الطب .
- مجموع به شرح الأجرومية ، ولامية الافعال مع شرحهـا .
- مجموعة كبيرة من المصاحف .

ونجد قائمة اخرى فى بعض الدواوين نذكر من بينها . التفسير لابي طالب مكي ، القشني على الرسالة، ابو الحسن على الرسالـة ، الرصاع ، سراج الملـوك للطرطوشي .. وتذكر بعض الوثائق الوقفية انـه بتاريخ 1216 هـ كانت مداخيل الجامع نحـو مائتي مثقال يصرف منها على مصالح الجامع نحو النصف ، ويصرف على تسفير الكتب نحو خمسة عشر مثقالا ، وهو مال كبير بالنسبة لميزانية الجامع فى هذا العهد . وكانت العادة ان تستعار هذه الكتب من قيم الخزانـة كل يوم الجمعة بعد صلاة العصر (*) ، وكانت تخرج عشرات الكتب ولا يرجع منها ولو واحد ، وخصوصا منها ما كان النسخ ، وهذه الفوضى فى الاستعارة هي التي أضاعت الكثير منها وخربت مكتبات المساجـد والزوايا بالمغرب ، اضف الى ذلك المؤامرات التي كـان تدبرها الاستعمار لاختلاس ما كان بهذه الخزائـن من نفائس وذخائر ، وقد اخبرت ان مجموعة كبيرة مـن كتب خزانة شفشاون توجـد الآن بالمكتبـة الوطنيـة بمدريد ، وكم مر فى تاريخ المغرب من هذه المآسي ؟ .

وقد دونت أوقاف الجامع الكبيـر والمدرسة فى دواويـن خاصـة ، وتعرف الـى اليـوم بالحـوالات الحبسية ، لأن وثائق التحبيس قد حولت ونقلت اليها، وكان كلما تجمعت املاك وأوقاف دونها القاضي بنفسه، أو امر بعض العدول البارزين لديه بتدوينها ومر هذا التدوين بمراحل : وتبتديء المرحلة الاولى من نحـو سنة 980 هـ / 1012 هـ على يد القاضيين ابي العباس احمد بن عرضون المتوفى سنة 992 هـ واخيه ابي عبد الله محمد بن عرضون المتوفى سنة 1012 هـ وقـد دامت ولايتهما على شفشاون نحو ثلاثين سنة واليهما يرجع الفضل فى تنظيم هذه الاوقاف ، والسهر عليهـا كما يذكر ذلك القاضي ابو عبد الله مخشان المتوفـى 1042 : (وقـد تقر ضبطه ــ رحمـه الله للاوقـاف وغيرها ــ يعني ابا العباس بن عرضون ــ حتى انـه لم يدع وقفا من اوقاف عمالته الشفشاونية ، حاضرة وبادية الا دونها ، وجعل عليها عاملا يطوف عليها مـدة دولته احتراسا لها من الضياع ولا شك انه بعـد موت القاضيين رحمهما الله وقع اهمـال فى الأوقـاف ولا سيما ما كان منها بالباديـة) (*) .

ويأتي فى المرحلة الثانية من قضاة القرن الحادي عشر أبو عبد الله محمد مخشان وابو زيد عبد الرحمان أمفرج وشارك فى تدوين المرحلة الثالثة من أهل القرن الثاني عشر والثالث عشر ابو مهـدي عيسى بن علي الشريف وولـداه محمد وعلي ، وعبد السلام بن علي الشريف واخـوه محمد ثم احمد الشاهـد العلمـي ومحمد الصغير اليلصوتي وعبـد الكريم الحضري والفقيه العدل محمد شابو (*) وكان الى جانب الجامع

(*) الحوالة ملحق ج فـي ص 139 وثيقة 120

(*) الحوالة الجزء الاول ص 146 وثيقة 74

(*) الحوالة الجزء 1 ص 146 ــ وثيقة 74 ــ وملحق الجـزء فى ص 146 وثيقـة 104

(*) مرآة المحاسن ــ العربي الفاسي ص 69 ــ 170

الكبير (العتيق) بشفشاون عدة مساجد وزوايا : كمسجد ابي خنشة ، ومسجد ريف الاندلس ، ومسجد السوق ، ومسجد الصباتين ، ومسجد المنصر .. ومن الزوايا ـ وقد تكاثرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ـ الزاوية الناصرية ، والزاوية التليدية، والزاوية الجيلانية ، والزاوية الدرقاوية ، وكان لكثرة هذه المساجد والزوايا ـ على صغر المدينة ـ اثرها القوي في الروح الدينية التي سادت هذه المدينة حتى صارت تعرف ـ فيما بعد ـ بالمدينة الصالحة ، والجامع الاعظم ـ على الخصوص ـ ومعه المدرسة التي كانت بمثابة قسم داخلي له قد ادت مهمة مزدوجة ، روحية وثقافية ، دينية وفكرية ، وياتي في الرعيل الاول من الذين خلقوا الحركة الفكرية بهذه الديار ، وبذروا البذور الاولى في اجوائها ابو عبد الله محمد بن عرضون 1012 ومن تلاميذه الابرار ابو العباس احمد بن الشريف العلمي المتوفى سنة 1027 الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذا المعهد الاسلامي ، وكان الجامع للدراسة ، والمدرسة لسكنى الطلبة ، فكنت ترى حلقات الدروس تلقى هنا وهناك ، وفي كل زاوية من زوايا الجامع ، كان يجلس الشيخ فيلتف حوله الطلاب ، ويلقي عليهم دروسا في الفقه والعربية والدين، على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم ويحدثنا ابو حامد الفاسي عن الدور الهام الذي قام به أستاذه أبو العباس بن الشريف العلمي ، في حقل التعليم وفي ميدان الوعظ والارشاد ، بمعهد الجامع الكبير بشفشاون فيقول : (ولي ابو العباس خطابة الجامع الاعظم ، فحسن موقعه من قلوب الخاصة والعامة ، حسن بيان ، وفصاحة لسان ، ومراعاة ما يليق بكل زمان ، وقام بحق تلك الخطة احسن قيام ، وشهد الجميع بانه لم يتقدم مثله هناك خطيب ولا امام .. وكان أبو العباس يدرس في الفقه وغيره ، وانتفع به خلق كثير ..) وكتب اليه أستاذه الشيخ القصار ينوه بمدرسته الجديدة في شفشاون ، ويثني على جهوده واخلاصه ، ويبدي رايه في المنهاج الدراسي ، الذي عرضه على انظاره فيقول : (وفرحت غاية الفرح بختمك الصغرى فطالع كتب الشيخ السنوسي السبعة ، وكتاب ابن مالك : الفوائد المحوية في المقاصد النحوية، فيه ما في الكافية ، واعجبني اقراؤك الرسالة ، وفرحت به ، لاسيما اذا اقتصرت على المحتاج اليه ، وختمتها سريعا ، وكذلك اقراؤك الخراز فقد اعجبني كثيرا، واعتمد على ابن آجطا فان نقله صحيح جدا ، وكثير من شروح الخراز فيه تحريف ، نفعك الله ، ونفع بك .. ويشير الشيخ القصار في غضون كلامه الى روح العلم ، والطموح الفكري الذي كان عليه ابو العباس فيقول : واذا رايت تاليفا لم تتحقق اني رايته، فاعلمني به والمراد ان الانسان يموت طالبا للعلم .. والسلام (*) ، ويبلغ من اهتمام الامام القصار بهذه المدرسة ، أن كتب الى الشيخ ابن ريسون بجبل العلم، يحثه على ان يبعث بأولاده الى مدرسة شفشاون ، فيقول : (.. والله الله فيهم في طلب العلم ، وعندكم اليوم ابن عمكم سيدي احمد .. فقيه جليل ، ولكم فيه عون) (*) ويمكن أن نستنتج من النصوص السابقة ان المواد الدراسية التي كانت تدرس بمعهد الجامع الكبير بشفشاون في القرن الحادي عشر هي كما يلي : (1) العربية : بالفية ابن مالك : شرح المكودي او المرادي . (2) التوحيد : بصغرى السنوسي وشروحها . (3) الفقه برسالة ابن ابي زيد وشرح ابي الحسن . (4) التجويد والقراءات بكتاب الخراز وشرح ابن آجطا ...

وقد تخرج من هذا المعهد علماء كان لهم صدى بعيد في ميدان العلم والثقافة ، وفي ميدان التاليف والكتابة كأبي العباس بن الشريف العلمي ت 1027 وله مؤلفات منها حاشية على الصغرى ، وجزء في نقل الميت من قبر الى قبر ، وجزء في انساب العلميين .. ومقيدات في الفقه والاحوال ، والعربية والطب والتاريخ وما الى ذلك ..

وكأبي الحسن بن علي بن الشريف العلمي ، صاحب النوازل المشهورة المتوفى 1126 هـ وغيرهما كثير ، وكان بين أساتذة جامع شفشاون ، وشيوخ القرويين صلات علمية وثيقة ووشائج قربى ومودة ، وكان اكثر علماء شفشاون يتخرجون من جامعة فاس، وان درسوا اكثر العلوم في غيرها ، فلا بد أن يتبركوا بها ، ومع ذلك فقد كان هؤلاء العلماء يعتزون بآرائهم وافكارهم ، ويناقشون علماء فاس مناقشة الند للند، وكانت بينهم مساجلات ومناقضات تشتد احيانا وتخف اخرى ، ونجد صورا منها في كتب التاريخ والفقه ، وتقرأ نماذج من هذه الابحاث العميقة ، والردود

(*) مرآة المحاسن ص 70 ــ 171

(*) نفس المصدر ونفس الصحيفة 170

القوية لابي محمد الهبطي المتوفى 963 هـ وأبي العباس ابن عرضون المتوفى 992 هـ واخيه ابي عبد الله ابن عرضون في كتاب مرآة المحاسن لابي حامد الفاسي ونوازل الشريف العلمي ، على ان كثيرا من علماء شفشاون والبادية تولوا التدريس بفاس ، وتلمذ لهم ابناء فاس كابي العباس ابن الشريف العلمي فبعد أن تعلم بشفشاون مسقط راسه انتقل الى فاس ، واخذ عن شيوخها ، وتولى الاقراء بها ومن تلاميذه ابو حامد محمد العربي الفاسي ت 1052 هـ .

وقد توارث الشرفاء العلميون الخطابة والتدريس بجامع شفشاون كما تعاقبوا على ولاية القضاء بشفشاون منذ اوائل القرن الحادي عشر الهجري، وكان اول قاض منهم ابو العباس ابن الشريف العلمي، وكان قبل ولايته القضاء خطيبا ومدرسا كما سبق وتذكر بعض الوثائق الوقفية ان الاحباس كانت تساعده على الخطابةالتي كانت له فيها صولة وجولة بعشر أواق (*) ، ومن الذين تولوا التدريس والخطابة بالجامع الاعظم بشفشاون ابو عبد الله محمد بن احمد بن الشريف العلمي وكان بتاريخ 1088 قاضيا على شفشاون وأبو مهدي عيسى بن علي الشريف حفيد ابي العباس الشريف وهو من اهل القرن الحادي عشر وأبو الحسن علي بن عيسى الشريف العلمي التوازلي المشهور المتوفى سنة 1126 وابو العباس احمد بن محمد بن عبد السلام العلمي كان بتاريخ 1232 قاضيا على شفشاون وتذكر بعض المصادر من الذين تولوا التدريس بالجامع الكبير القاضي أبا عبد الله محمد الحوات وولده الاديب سليمان الحوات والقاضي عبد الكريم الحضري والقاضي عبد الكريم الورديغي ومحمد العربي الريسوني وعبد القادر الورديغي الرحالة المشهور وكانت هناك احباس الرسالة واحباس البخاري واحباس التوريق بين العصرين وما الى ذلك وكانت العادة — اذا دخلت الاشهر الحرم — أن يقوم كبار العلماء بتدريس البخاري بالجامع الكبير ومن الذين درسوا البخاري بالجامع الاعظم ابو الحسن علي بن الشريف العلمي وكانت هناك نسخة من صحيح البخاري بخزانة الجامع تعرف باسمه ويتبرك بها في الازمات وجاء بعده ابو العباس أحمد بن الشاهد العلمي كان في سنة 1177 قاضيا على شفشاون ودرس صحيح البخاري بعدهما العالم الاديب ابو محمد عبد الملك الخيراني الورديغي صاحب القصيدة المشهورة في مدينة شفشاون تولى قضاء شفشاون وكانت بينه وبين العلميين منافسات ومشادة توفى سنة 1209 هـ ومن المدرسين البارزين في الطبقة الاخيرة ، ابو عبد الله محمد الفالي بن الشاهد العلمي المتوفى سنة 1348 هـ وسبق انه دفن بصحن المدرسة وفي سنة 1350 ادخلت اصلاحات هامة على جامع شفشاون وكتب على لوحة فوق باب الجامع الكبير فيها ما يلي: الحمد لله قام باصلاح هذا المسجد باشا المدينة الشريف عبد الوافي البقالي في عهد الخليفة الحسن بن المهدي في رمضان عام 1350 هـ وكان قاضي شفشاون في هذا التاريخ الحسن بن أحمد العلمي وهو آخر القضاة العلميين بهذه المدينة .

وفي سنة 1355 اصلحت المدرسة اصلاحا كاملا، وزيد في غرف الطلبة ، واحدث في الطابق الاعلى مكتبة نقل اليها بعض ما تبقى من كتب الاحباس بمساجد شفشاون ، ومن هذا التاريخ أصبح الجامع الكبير بشفشاون معهدا دينيا خاصا لنظم وقوانين جديدة، وعلى راسه مدير وموظفون واساتذة رسميون تدرس فيه اقسام الابتدائي والثانوي وتسير فيه الدراسة بصفة منتظمة ، في كل بلاط فصل او فصلان . . . والطلبة حلقات على الطريقة القديمة . .

ومنذ عهد الاستقلال بدأت الدراسة تختفي من المساجد ، وتنتقل من الجوامع تدريجيا ولا تزال بعض الفصول تدرس بهذا الجامع الى اليوم ، والمدرسة تقسم داخلي لسكنى الطلبة تابع لادارة المعهد الديني وهكذا ظل جامع شفشاون — طيلة أربعة قرون — وربع قرن — المورد العذب ، والمنهل الصافي ، يرده الطلاب، ويكترعون من حياضه ومناهله ، وقد وقف كالجبل الشامخ ، يصارع الزمان ، ويؤدي رسالته الخالدة ،

(*) الحوالة ص 107 وثيقة 73 — مصحف جرء ني.

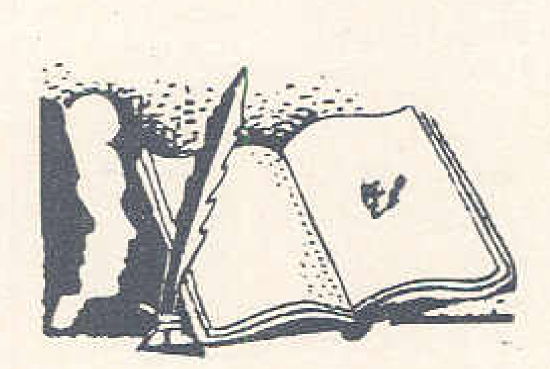
وكان منار اشعاع ينير الفكر ويرشد العقل ، ويهدي الى طريق النجاة والسعادة . .

ومن هنا نستطيع ان نتبين مقدار الرسالة الكبرى التي اداها ويؤديها المسجد للمجتمع ، والدور الخطير الذي قام به في حياة الامة الاسلامية ، فهو المصنع الذي يصنع الجمهور ، والسواد الاعظم من المسلمين ، ويصقل عقولهم ، ويهذب نفوسهم وارواحهم؛ وهو البلسم الشافي ، والدواء الناجع لامراض الجهل والجمود ، وادواء الانحلال والتفسخ الخلقي ، (في بيوت اذن الله ان ترفع ، ويذكر فيها اسمه ، يسبح فيها بالغدو والاصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) .

سعيد احمد اعراب

مصادر البحث :

- الحوالات الحبسية بجامع شفشاون .
- مرآة المحاسن : العربي الفاسي .
- نوازل الشريف العلمي .
- تقاييد خاصة .
- كتابات بالجامع الكبير ، والمدرسة بشفشاون .
- بعض الآثار القديمة بشفشاون .
- مجلة النصر : العدد الرابع ، السنة الثانية .
- سماعات .



تاريخ بناء القرويين

المرينى

للأستاذ : عبد الهادي التازي

ان كل اولئك الذين كتب لهم ان يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيدا ان ابن ابي زرع في كتابه القرطاس نقلا عن ابي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حذوا حذوه من امثال الجزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضي في جذوة الاقتباس ، وغير هؤلاء يجمعون على ان مسجد القرويين بمدينة فاس « شرع في حفر اساسه والاخذ في امر بنائه اول رمضان من سنة 245 (30 نونبر 859) بمطالعة العاهل الادريسي يحيى الاول ، وان ام البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة الى ان انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكرا لله » ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه بالاستسلام للشك فيها والتردد امامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب اعني وقت بني مرين اوائل القرن الثامن الهجري ، بيد اننا نجد انفسنا اليوم امام وثيقة معاصرة للادارسة ، انها لوحة منقوشة عثر عليها – عند اعمال الترميم – في البلاط الاوسط فوق قوس المحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها – في جملة ما كتب – بخط كوفي افريقي عتيق : « بني هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة مما امر به الامام اعزه الله داود بن ادريس ابقاه الله ... ونصره نصرا عزيزا »

وما دمنا في استعراض الآراء حول تاريخ بناء القرويين لابد ان نعرض لرأي ثالث نقله الدكتور اوسكار لانز (1) فلقد ساق ترجمة لنقش قيل انه عثر عليه فوق « صفيحة فضية » مغروزة في احد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « ... بني يوم الخميس من سنة 306 اول شهر ربيع النبوي .. » اي في ايام ولاية يحيى الرابع ...

وحتى نرجع الى حديث فاطمة وداود نشير الى ان رواية الدكتور لانز لا نعيرها اي وزن من الناحية التاريخية لانها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب ادريس الذي زوده بهذه الوثيقة والذي لم يكتمه انه وجد صعوبة في الوصول الى بقية النقش ، الامر الذي يقرب الى « اساطير » السياح اكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن اول ربيع الاول يوافق – حسابيا يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع الى ابن ابي زرع ، واللوحة المنبعثة .

ولكن قبل ان نفتح الموضوع يجب ان نتعرف في كلمة وجيزة عن الامام داود ابن ادريس تاركا التفصيل للبحث الذي كنت كتبته خصيصا عن هذه الشخصية(2):

بالرغم من ان جميع المؤرخين بخلوا على داود هذا باكثر من كلمة واحدة تتلخص في انه « لما توفي ادريس الثاني قام بالامر بعده ابنه محمد ، وان هذا الاخير قسم بلاد المغرب بين كبار اخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذي استأثر باقليم تازة . » وقد رددت سائر المصادر صدى « الفتنة » التي نشبت بين بني ادريس على اثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الاسم يعد في عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

---

1) Oskar Lenz : Voyage au Maroc - Paris 1886 - Vol. 2.

2) التازي ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة ابريل 1960 – مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد 36 جزء 2 ص 212 .

اولها : اليعقوبي (3) الذي يذكر ان داود ابن ادريس كان واليا على عدوة الاندلس وانه كان «يدافع» يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى

ثانيا : الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريز الذي يحمل اسم الامام داود ابن ادريس (4)

ثالثا : هذه اللوحة الاثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيسي لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية

وبعد هذا نرجع الى الحديث ...

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ او من عمل داود ؟

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفي على اللوحة كلمة في الموضوع نشرت في مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب (5) او القاهرة (6) او تونس (7) او اسبانيا (8) ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك ان اثير انتباه الناس عليهم يساعدون على اضفاء الضوء على هذه الحقائق ، ومن سوء الحظ انني الى الآن لم اقف على « رد فعل » من طرف الذين يهمهم امر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التي تلقيتها من بعض الاساتذة الاجلاء الذين حرصوا على ان يجعلوا نقل القرطاس في نجوة من الشبهة والريب .

ففي الناس من اوصى بنبذ امر هذه اللوحة لانها في نظره تناهض « تواترا » متوارثا عبر الاجيال وفيهم من رجح ان تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هنا ... وان ذلك تم على عهد الوطاسيين في الفترة القصيرة التي رجع فيها النفوذ بشرفاء الادارسة بواسطة محمد بن علي الجوطي (9) .

وفي الناس طائفة ثالثة يصممون على ان ياخذوا بما ورد في مدلول اللوحة نظرا اولا لكونهما « وثيقة معاصرة » ، وثانيا لما اثر من هفوات عن القرطاس ، وثالثا لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من امثال اليعقوبي والبكري وابن عذاري تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يعرجوا على تاسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس ...

فماذا تكون الحقيقة ؟

اما « التوصية » بنبذ اللوحة فامر سلبي لايسمح به المؤرخ النزيه ، واما عن امر نقل اللوحة وخاصة ايام الوطاسيين فانه يبعده عندي ان التاريخ ظل صامتا صمتا مطلقا عن مؤسسات داود ابن ادريس في مناطق نفوذه فلا يمكن ان ندعي اذن انه اسس هناك « مسجدا » وان « اللوحة » التي كانت على ذلك المسجد هي التي نقلت ! لكن الابعد هو القول بان عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع انها وجدت تحت الجبس الذي ضرب ــ منذ نهاية دولة المرابطين ــ على سائر جبات البلاط الاوسط ، ولم يتحدث التاريخ ابدا عن ازاحة « التبليط » (10) الذي قام به فقهاء فاس او المسؤولون في الدولة الموحدية ، لذا فامام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتبارا لما نقل عن اليعقوبي وعرف من امر السكة الداودية واحتراما لما نقل عن

---

(3) اليعقوبي ، اخبار البلدان ، طبعة ليدن 1890 ص 137
Blachère : Hespéris T. 18 - 1934 - page 41, 42, 43.

(4) La voix : Catalogues des Monnaies - Musulmane de la Bibliothèque Nationale, page 69, nº 921.

(5) التازي ــ مجلة « التربية الوطنية » العدد الرابع سنة 1960 ص 19 ــ 20 .

(6) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد الثامن 1959 ص 244 ــ 245 .

(7) التازي ــ مجلة الفكر ــ السنة الخامسة عدد 6 مارس 1960

(8) التازي ــ مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ــ المجلد السادس 1958 ص 277 ــ 278

(9) Deverdun - Mélanges d'Histoire et d'Archéologie, T. 11, page 72

(10) مجلة كلية الآداب ــ الاسكندرية ، العدد 14 سنة 1960 ص 60 ــ 88 ــ المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر الجامعة العربية ص 445 ــ 465 ــ التازي : التربية الوطنية ــ السنة الثانية ــ العدد الثاني دجنبر 1960 ، احد عمداء القرويين عبد الحق بن معيشة ــ التازي : جامعة القرويين في احد عشر قرنا طبعة المحمدية ص 8

ابي القاسم ابن جنون (11) وابي محمد عبد الملك بن محمود الوراق (12) مما تردد صداه في الانيس المطرب وانعكس في زهرة الآس والعبر والجذوة

ونظرا لاننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخي آخر يعزز بناء الامام داود لجامع القرويين

ونظرا لكون النقش المشار اليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، اقول مراعاة لكل ذلك نجد انفسنا بين احتمالين :

فاما ان يكون ابتداء البناء كان في رمضان 245 في ايام يحيى ولكنه استمر الى سنة 263 ايام داود بن ادريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه المدة ، ويؤيد هذا الرأي أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف في هذه الاثناء ، وثانيا ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحريا ، وثالثا ان المصادر التاريخية انما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

واما ان يكون البناء تم في نفس السنة نظرا لكون الجامع – ومساحته لاتصل الى الف متر مربع – لايمكن التهاون في امر بنائه طيلة ثمانية عشر عاما ... ويفسر وجود داود بن ادريس هنا بانه في الفترة التي كان « يدافع » فيه يحيى تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليدا لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في ان تعرف الاجيال القادمة انه كان « هنا » فقد شاء ان ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة ، ولما كان الملوك ، والرؤساء يختارون ابرز مكان واشهره لتخليد اسمائهم ، وكان اقدس مكان واكرمه هو جامع القرويين فقد كان هو بالذات المركز المختار ، ولما كان افضل مكان في المسجد واطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه الارزة عليه حتى تظل امام المتعبدين والقاصدين بقي ان يتساءل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع ان النصوص المذكورة تتضافر على انها المؤسسة ؟

اننا نعلم ان التقاليد القديمة لاتلح في ذكر اسماء النساء على المباني سيما مع ما اثر من ان الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجو الى الملوك تبنيها تقديرا لهم وتكريما لمقامهم .

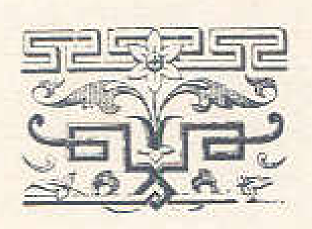
وبعد ... فهل ستكون هذه كلمتنا الاخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟

عبد الهادي التازي

---

11) رسالة في ذكر من اسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم 9722 ح)

12) مخطوط في تاريخ الادارسة من كوبنهاجن مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية ..



مسجد حسان

للأستاذ : إبراهيم حركات

هـذا المسجد العظيم من بناء المنصور الموحدي الذي كان مغرما كـلفيه بمظاهـر العظمة واسبـاب الحضارة العمرانية .

واختيار هذا المسجد الذي تتجاوز مساحتـه 2550م2 بمدينة الربـاط ليكون اكبر مساجد المغرب وليداني اكبر مساجد الشرق مساحـة وفخامة بناء ، يدل على ان الموحدين كانوا يرغبون فى ان يتخذوا مـن الرباط مدينة كبيرة تخلف فى اهميتها مدينتي فـاس ومراكش ، والا فقد كان اجدر بجامع حسان ان يبنى بفاس او مراكش عاصمة الدولة . وبالرغم من العناية التي بذلها كل من ابي يعقـوب وابي يوسـف فى انشـاء مدينة كبيرة بكل مرافقها لتخلد بذلك اسم الدولـة الموحدية ، فان الرباط فى الواقع لم تعمر بقدر ما كان يامله منها ابو يعقوب وخلفه . والظاهر ان هذا الاعتبار من اهم الاسـباب التي اوقفت حركة البناء فى هـذا الجامع بالاضـافة الى موت المنصور قبل تتميمه والـى انـه كـان يستنفـد موارد الدولـة مـع المرافـق الاخرى للربـاط .

ولقد اغرم كل من عبد المومن وخلفيه بموقـع سلا والرباط ، مما حبب اليهم جميعا المقام عدة مرات بسلا وهم فى زحفهم الى الاندلس . وكانت ناحية سـلا يومئذ تتوفر على بساتين كثيرة بفضل مهاجرين مـن بني يفرن تواردوا عليها من افريقية ايام زحف القبائـل العربية ، وكان لهم اكبر الفضل فى تعليم السكـان المحليين فى غراسـة البسـاتيـن .

ونسـبة المسجد الى حسان يحيط بها الغموض ، ولكن ارجح الروايات تذكر ان حسان مهندس اندلسـي وضع تصميم المسجد والمنار واشرف على بناء ما شيد منه . ولا يتيسر من المصادر ما يؤكد ان حسـان هذا قد شارك فى تصميم وبناء مساجد اخرى بالمغرب .

ولكن يستنتج من التاريخ السياسي للموحدين ان جامع حسان كان يبنى فى نفس الوقت الـذي كانت تبنى فيه جوامع اخرى كجامع الطالعة بسلا وجامـع القصبة والكتبيين بمراكش وجامع الخيرالدة باشبيلية

ويبلغ طول المسجد 183 م و 139٫40 م عرضا . كما تبلغ مساحة قاعة الصلاة وحدها ازيد من 1932 متر مربع اي 139 × 139 وهي مساحة غير معهودة فى قاعات الصلاة بالمساجد الاخرى .

وليس للمسجد صحن واحد كباقي المساجـد المغربية بل له صحـن كبير قرب المنار وصحنـان جانبيان ووسطه كله تشغله الاعمدة التي تتفاوت علوا من 3٫25م الى 6٫50م ، وتتميز البلاطات المقاربـة للاسوار بعلو اعمدتهـا المستديـرة الشكل . على ان استدارة الاعمدة كلها امر غير عادي فى عامة مسـاجـد المغرب . ولضمان متانـة السقوف ، فقـد اختيـرت الاعمدة من الحجر والرخام الذي لا يعرف بالضـبط مصدره ولكنه مجلوب من خارج الرباط . كما ان كـل عمود يتكون من عدة قطع كثير منها غير منسجم انسجاما تاما ولكن لا يبعد ان تكون نية المصمم قد اتجهـت الى تلبيس او زخرفة هذه الاعمدة فيما بعد ، وان كان من المعتاد لدى الموحدين وسابقيهم المرابطين الاهتمام بعنصر الضخامة والبساطة اكثر من الاهتمام بعنصر الزخرفة .

وتبلغ اعمدته حوالي اربعمائة ، كما كان عدد ابوابه 16 ، ستة منها في الجانب الغربي واربعة في الجانب الشرقي واثنان جنوبا واربعة في الجانب الشمالي .

على ان تساقط اعمدة الجامع سنة 1755م ثم اعادة وضعها في عهد الحماية الفرنسية قد يثير بعض الشك في التصميم الاصلي لاعمدة المسجد . ولعل هذا هو السبب في عدم تناسق قطعها تناسقا تاما

ولا يعرف ما اذا تم تسقيف بعض اجزاء المسجد ، لان وجود بعض آثار القرمود لا يدل بالذات على ان المسجد قد سقف فعلا ، ولكنه على كل حال قد تعرض لاحداث احالته اطلالا ، فان ابوابه الستة عشر والتي تم تركيبها في عهد المنصور نفسه حفظا لسير العمل داخل الجامع ، قد اقتلعت عن آخرها ، كما اقتلعت او سرقت على الاصح اخشاب اخرى كانت معدة للتسقيف وغيره . وهكذا ففي عهد الدولة الموحدية نفسها وفي فترة احتضارها عمد السعيد الموحدي الذي كان عليه ان يحافظ على هذا الاثر المبارك من آثار اجداده ، الى اخشاب المسجد وابوابه فصنع منها اجفانا سنة 641هـ فما لبثت ان احترقت بنهر ام الربيع وبذلك فسح للعامة مجال النهب والسلب ليسطوا على بقية هذه الاخشاب التي كانت من اشجار الارز . وتوالى السطو ايام المرينيين ثم السعديين بل حتى ايام العلويين عهد السلطان عبد الله بن اسماعيل حيث صنع القراصنة من سلا والرباط سفينة من اخشاب الجامع المذكور وسموها بسفينة الكراكجية ثم انتزعها منهم السلطان محمد بن عبد الله .

ولم تكن احداث الطبيعة بارحم من الناس على هذا الاثر ، فقد كان زلزال لشبونة سنة 1169 (1755م) الذي عم اثره بعض انحاء المغرب خصوصا مكناسة والرباط ، سببا في سقوط عدة اعمدة واطراف من السور والمنار ، كما تهدمت عدة منازل من الرباط ثم تلا هذا الزلزال حريق عظيم اتى على ما بقي من اخشاب المسجد التي تحولت رمادا ، وكان للامطار ورطوبة البحر وتقلبات الجو اثرها ايضا على هذا البناء الاثري حتى استحال الجانب المطل على نهر ابي رقراق من المنار رماديا كما يبدو ذلك حتى الآن .

اما محراب المسجد فيبلغ ثلاثة امتار عرضا وثلاثة طولا . ولكن لم يبق منه الا مكانه الذي تهدم اعلاه .

ويحيط بالمسجد سور عظيم يبدو من جهة المحراب مزدوجا ، بدليل ان بعض اجزاء هذه الجهة قد سقط منها السور الداخلي ، وبقي السور الخارجي ماثلا .

وقد عمل في هذا المسجد سبعمائة اسير من اسارى الافرنج مثل كثير من المساجد الاخرى بالمغرب . وقد وصفه صاحب الروض المعطار بانه من اعظم مساجد الاسلام واحسنها شكلا واوسعها مجالا وانزهها منظرا .

اما المنار فقد كان يقابل المحراب في خط مستقيم بخلاف اكثر المنارات في المساجد المغربية الاخرى التي تنزوي عادة في حد الركنين من الجدار المقابل لجدار المحراب . ومن شأن هذا التصميم ان يضفي على الجامع طابعا هندسيا بديعا . ويبلغ كل جانب من المنار 16 مترا عرضا . اما ارتفاعه فيبلغ 65 مترا ولكنه لو تم لبلغ علوه حسب تقدير بعض الخبراء 80 مترا .

واهم المميزات المعمارية في هذا المنار بناؤه من حجر صلد نضدت اجزاؤه بعناية بالغة ثم اختيار موقعه من امتن البقاع واقدرها تحملا لثقل هذا البناء الشامخ . وليس من المستبعد ان تكون احجار المنار قد اقتطعت من محاجر تقع بالرباط نفسها .

اضف الى هذه المميزات ان الصومعة سهلة الارتقاء بسبب الدرجات المنبسطة التي كانت ترقاها الدواب حاملة ادوات البناء من حجر وطين وغيره .

ولولا هذه المتانة التي تميز بناء المنار لتداعى على اثر الزلزال المشؤوم سنة 1755م .

ويكاد يستحيل ان ناخذ نظرة حقيقية عن الفن الزخرفي الذي يتميز به هذا الجامع الكبير . ولكن العنصر الفني الموحدي تتمثل كثير من مظاهره في المنار نفسه . فالعقود المتجاوزة التي نحتت على كل من جدران المنار تزينها المقرنصات التي يرجع اتخاذها بالمغرب الى عهد المرابطين ولكنها تتطور بعدهم مع تعاقب الدول حتى تتخذ اشكالا مختلفة من نصف دائرية ومعقوصة ومزدوجة الخ . اما المعينات المقرنصة بدورها فتمثل بداية لدخول هذا الشكل الهندسي في مختلف العناصر الزخرفية في فن البناء وغيره منذ

عصر المرينيين كما يستدل على ذلك من بوابـــات المدارس وتوافذ بيوت الطلبة والمصنوعات الجلدية .

هذا ويبلغ عرض جدار المنار متريـن ونصفا ، ومن شان هذا العرض ان يحفظ توازنه ، كما يبلـغ عرض السور مترا ونصف وعلوه تسعة امتار .

وقد بنيت في الجدار المقابل للقبلة سدقتان كمـا أن مخبا المنبر ما يزال منفذه بارزا . ولكننا لا نرى اثرا لمرافق كثيرة داخـل المسجـد او خارجه ، غيـر أن التنقيبات الاثرية قد تكشف عن بعض المباني المجاورة اذ لا ريب ان المسجد لم يكن منعزلا كليا عن المدينة التي كان يبلغ طولها ازيد من فرسخ على ما يذكره المعجب . وعلى العكس من ذلك ، فان هذه الناحية من المدينـــة كانت اكثر عمرانا . وقد اثبت ابو جندار في « مقدمة الفتح » أن القراصنة قد بنوا دارا لصناعة سفنهـم بجوار جامع حســان ، فاين آثار هذه الدار ؟

وتجهل الطريقة التي اعتمد عليهـا الموحـــدون لامداد الجامع بالماء ، بصرف النظر عن الآبار ، ولكن من الثابت ان عين اغبولة (بالدشيرة) كانت المورد الرئيسي لامداد المدينة كلها بالماء ، بل ولامداد سلا ايضا عن طريق اقنية تمتد على القنطرة الكبيرة التي بناها المنصـور بين العدوتيـن وهي قنطرة كان يعبرها الجيش وعموم الناس وكانت مبنية بناء محكما حسبمـا نقله صاحب كتاب « المغرب ومدنه الاثريـة » .
« Le Maroc et ses Villes d'Art »

وككل مساجد المغرب تقريبا فان عقـود جامـع حـسان كانت على ما يحتمل تتجه نحو القبلة .

ويستمد جامع حسان فنه في الجملة من مساجد الاندلس والقيروان والشرق الاسلامـي . وهكـذا يأخذ الجامع شكله العام من هندسة الجوامع الاندلسية، ومن بين مؤثراته الشرقية السدقتان المواجهتان لجدار القبلة ومن مؤثرات القيروان عقود المنار المتجـــاوزة وقد نضيف اليها عدم تساوي الاعمدة ولـو انها كانت عن قصد في جامـع حســان ، ربما لترفع فوق صفارها قباب تتساوى في ارتفاعها مع السقف المنصوب فـوق الاعمدة الكبيرة ، ولكي لا يضفي تساوي العقود علـى المسجد طابعا رتيبـا .

ويتوفر المسجد على آبار داخلية لحفظ المياه وتصريفها وبالتالي للاستعانة بها بالاضافـة الى مياه القنــوات الخارجية التي لا يبدو لها مع ذلك اثر ، كما لا نشاهد اثرا لفسقيات الوضوء التي يبدو من تصميم الجامـع انه لم يكن لها مكان في وسطه الذي كان معدا للتسقيف كمعظم مساحة الجامـع .

ولم تكن اسوار المسجد من الحجر وحده ، بـل كان بعضها من الحجر وبعضها جـص وهو الاكثـر ، وذلك ما دعا الى تلاشي هذه الاسوار فضلا عن عوامل الطبيعـة .

ولحسن الحظ ، فان رخام الاعمدة لم تسـط عليه الايدي مثلما سطت على اخشاب الجامع وذلـك لقلـة الانتفـاع بـه .

ويبلغ قطر هذه الاعمدة حوالي ثمانين سنتمترا وقد رممت بعضها في العهد البائد على يد مصلحـة الآثار . وكانت الاعمدة كلها تساقطت الا عشرون منها تقريبا . وكان الضابط « Dieulafoy » هو الذي باشر التنقيبات الاولى فيما بين سنة 1914 و1915 .

وكانت موارد البناء تتكون من مختلف المواد التي تشكل عادة البناء الاسباني المغربي ، كالآجر والحجـر المنحوت والجص الذي كان يحتوي على قدر وافر من الجير ثم الرخام والخشب الخ .

وكانت تحادي سور القبلة عدة ابراج للزينـة وحفظ التوازن في آن واحد .

ويلاحظ ان المحراب الذي يقع في اقصى البلاطة المركزية لا يتجه نحو الجنوب الشرقي ، فجدار القبلـة ينحرف كثيرا نحو الشرق ، وهو مربع الشكل بخلاف باقي المساجـد المغربيـة .

ويتجه الصحنان الجانبيـان عبر ثمانية اساكيب وثلاث بلاطات ويحيط بهما اعمدة ترتفع عليها عقود .

وفي داخل قاعة الصلاة يمكن ان تشاهد اعمـدة صغيرة بين الاعمدة الاساسية ، وهي من الآجر ويرتفع علوها الى 40 سنتمترا تقريبا . وكان الغرض من هذه الاعمدة الصغيرة حفظ القوالب التي شيدت عليهـا العقود والتي ضاع اثرها .

ويوجد جنوب الصحنين الصغيرين ثلاث بلاطات صغيرة وثلاثة اكاسيب يفصلها عن باقي بيت الصلاة اعمدة صغيرة .

ونظرا لارتفاع البناء فان بعض ابواب المسجد كان يصعد اليها بدرجات لم يبق منها الآن الا سافلها يحيط بها جدران من الجص وكانت سبعة من هذه الابواب تشرف على الصحن . وكانت الابواب في غاية الضخامة حسب تقدير بعض الخبراء. فقد كان ارتفاعها يتجاوز ارتفاع الجدار نفسه اي 10 امتار ، كما كان عرضها يداني عشرة امتار ونصفا .

اما تيجان الاعمدة فتختلف زخرفته ، فبعضها يشبه تيجان باب الرواح وبعضها يشبه تيجان اعمدة مسجد قرطبة .

ويمتد الصحن الكبير على مسافة 139 × 139 م . ويشتمل على آبار تغطيها عدة عقود .

وتقع الآبار في وسط الصحن المذكور ويبلغ طولها 69م وعرضها 28م ونصفا بينما يتجاوز عمقها سبعة امتار .

وتحادي الصحن الكبير اروقة تمتد على جانب سور الجامع من الشرق الى الغرب ، كما يمتد رواق مزدوج من جهة الجنوب .

ولقنوات الماء منافذ متباعدة تسدها بلاطات حجرية

وتمتد قناة اسفل ارض كل صحن على عمق ثلاثة امتار وقد بنيت كلها من الجص الا في بعض الاماكن حيث تتشكل اقواسها من الآجر .

وعلى مسافة من اركان الآبار في الحاجز الشمالي تمتد قنوات اخرى محاذية لجوانب الصومعة . وهذه القنوات اسفل الارض كسابقتها .

ويشكل بيت الصلاة تصميما على شكل T ولكن الغريب ان اكثر الاساكيب الكبرى هي التي تحادي الصحن الاكبر المجاور للمنار .

ويبلغ مجموع اساكيب بيت الصلاة 18 منها ثلاثة في الجنوب وسبعة في الشمال تحتوي على تسع عشرة بلاطة . اما الاساكيب الوسطى التي يجاورها صحنان صغيران فتشتمل على احدى عشرة بلاطة وهذا بقطع النظر عن الاروقة الجانبية .

تلك نظرة موجزة عن جامع حسان الذي لا يزال في حاجة الى دراسة تاريخية واثرية اوفى واعمق ، فمثل هذا الاثر الضخم ، جدير باهتمام المتخصصين .

فاس : ابراهيم حركات



نبذة تاريخية عن المسجد الأعظم بمدينة سلا

للأستاذ : محمد بن محمد العلوي

في الربوة العليا من مدينة سلا المشرفة على البحر المحيط من جهة وعلى وادي ابي رقراق من جهة اخرى يوجد المسجد الاعظم الذي اسس بنائه عيون اعيان سلا بنو القاسم بن عشرة وذوو الصولة بها صدر المائة الخامسة الهجرية جوار دورهم وقصورهم عام 420 وذلك على عهد دولة مغراوة التي خلفت دولة الادارسة بعد تطهير المغرب من البرغواطيين وكانت تلك الربوة قبل ان تعرف بطالعة سلا تسمى حومة الجامع وبها كانت دور بني العشرة كما كانوا يعرفون بالعشريين حسبما في كتاب الاستبصار في عجائب الامصار وهو مجموع مفيد .

وكان من جملة قصور بني العشرة القصر الشهير الفخم الذي بناه ابو العباس احمد بن القاسم بن عشرة والذي قيل انه كان من اعجب المباني واحسنها وانزهها قيل لما اكمل بناءه هنأته الشعراء ومدحته ودعت له ووافق اتمام بنائه ان دخل سلا الاديب الشاعر آخر فلاسفة الاسلام بالاندلس الحكيم ابو الحسن علي بن الحمارة ولم يكن اعد شيئا ففكر قليلا وانشد :

يا واحد الناس قد شيدت واحدة
فحل فيها حلول الشمس في الحمل

فما كدارك في الدنيا لذي امل
ولا كدارك في الاخرى لذي عمل

وقد صار هذا القصر بعد بانيه منزلا لملوك الموحدين وخصوصا عبد المومن فان غالب نزوله كان به كما في كتاب حدائق الازهار للمؤرخ الشهير السيد محمد بن علي الدكالي السلاوي الذي قال انه لايعرف لهذا القصر اليوم بسلا عين ولا اثر والظاهر ان بمحل هذا القصر بنيت المدرسة المرينية مستدلا على ما استظهره بالعثور على جدار عتيق يجاور المدرسة المذكورة غربا يتراءى من قدمه انه كان لدار قديمة جدا قبل بناء المدرسة بكثير وصورة باب تلك الدار شاهقة في الجو يغلب على الظن ان ذلك من بناء القصر المذكور .

وابو العباس احمد بن القاسم بن عشرة هذا هو واسطة عقد هذا البيت وواحد فخرهم الذي طبق ذكره الافاق فاشتهرت مزاياه حتى بلغت الشام والعراق اذ كان مقصد الوارد وبغية القصاد لا يمر فاضل الا عرج على مثواه فيظهر له من الاحتفال والاحتفاء فوق هواه وقد ذكره الفتح ابن خاقان في قلائده ، وشهرة بني القاسم ببني عشرة – كما ذكر ذلك عدد كثير من الفضلاء البررة – انهم ولدوا من بطن واحد فاشتهر عقبهم بذلك كما نص عليه صاحب الحدائق مع بيان مزيد لذلك ولم يعرف تاريخ لوفاته وانما كان في اوسط القرن السادس الهجري والله اعلم . ثم قامت بعد بني العشرة دولة الموحدين وملكها السلطان الاعظم ذو المزايا الكثيرة والغزوات الشهيرة ابو يوسف يعقوب المنصور الموحدي فجدد بناء المسجد المذكور عام خمسمائة وثلاثة وتسعين فاصبح من مساجد الاسلام العظام ومن اكملها حسنا واحسنها شكلا وافسحها مجالا وانزهها منظرا ، قال المؤرخ عبد المنعم الحسيدي ، كان يعمل في بنائه ونقل حجارته وترابه في عهد الملك المذكور 700 أسير من اسارى الفرنج في قيودها ، وبنى يعقوب رحمه الله لهذا المسجد مدرسة تجاوره من جهة الجوف وميضاة تسامتها واجرى لها الماء الذي جاء به من عيون البركة التي بغابة المعمورة على مسافات من مدينة سلا حتى

اوصله اليها ، وكان جلبه في قنوات من طين مطبوخ يقال انها لا زالت ظاهرة للعيان تحت سور الاقواس وحناياه التي يدخل منها الى سلا .

ثم اعترى هذه المادة خلل فجددها بعد الموحدين الملوك المرينيون الذين قاموا باصلاح المسجد المتحدث عنه فخرموا محرابه وجوانبه وبنوا مدرستهم البديعة القائمة العين والاثر ازاء المسجد المذكور .

وجاءت الدولة العلوية الشريفة فكان من آثارها لجانب المسجد المذكور جلب الماء من عين البركة في قلب مادة متينة البنيان صارت سورا عظيما جعلت فيه عدة اقواس عظيمة لمرور الناس بهندسة عجيبة الى ان ساوى مجرى الماء بها ربوة الطالعة فدخل جامعها المذكور وتوابعه . وفي طرة منقولة من خط يد الفقيه العلامة الصالح سيدي احمد بن عبد الرحمن الحافي السلاوي ، قال فيها ما نصه : الحمد لله وصل الماء الجاري لمحروسة سلا وجرى بخصة جامعها الاعظم عمره الله بدوام ذكره يوم الاثنين سادس عشر ذي الحجة متم عام 1123 بامر من مولانا اسماعيل الشريف وانفق عليه جملة وافرة من المال نفعه الله بذلك ه .

ومن عناية السلطان الاعظم والملك المجاهد الافخم مولانا اسماعيل قدس الله روحه بهذا المسجد السلاوي صدور ظهيره الشريف بقصر مشارع الشابل على الماء الجاري لسلا على وجه الحبس ، فقد وقفت على نسخة من نسخة منه بالحوالة الحبسية حبب الي لعموم الفائدة ان اذكر نصها ، وهاهي بنصها وفصها : « الحمد لله وحده نسخة ظهير كريم مولوي اسماعيلي مبارك عميم وامر مؤكد صميم بطابعه الشريف الذي تضمن اسمه المنيف بعد الحمدلة والافتتاح . الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا اثيرا مباركا فيه حبسنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته جميع الوادي المشرع المعهود لصيد الحوت الشابل بعدوة سلا حرسها الله على الماء الذي تفضل الله علينا باجرائه الى المسجد الجامع من الحضرة المذكورة ليصرف ما يستفاد من الوادي المذكور في اصلاح مجاري الماء المذكور وقنواته وبعد ما فضل من المستفاد المذكور لمصالحه ومنافعه وقدمنا للنظر في امر هذا الوادي وقبض ما يجب قبضه وصرف ما يصرف في مصارفه المذكورة خديمنا الانجد الارشد السيد ح محمد معنينو لثقته وامانته عندنا وبسطنا له اليد عليه وفوضنا له فيه دون معارض له ولا منازع ، وعليه في ذلك بتقوى الله العظيم واداء الامانة فيما اسندنا اليه تحبيسا مؤبدا ووقفا مخلدا لا يبدل عن حاله الى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قصدنا بذلك نفع المسلمين والله لا يضيع اجر المحسنين بفضله وكرمه والواقف عليه يعمل به ولا يحيد عن جميل مذهبه والسلام . وكتب في الاول من صفر الخير عام اربعة وعشرين ومائة والف 1124 ه .

ومن مآثر الدولة العلوية الشريفة لجانب المسجد المذكور ايضا اعادة بناء منارته التي تصدعت بصاعقة اولى وثانية بعد ان كانت رفيعة ايام المنصور فنقضت سنة 1255 عن اذن امير المومنين مولانا عبد الرحمن ابن مولانا هشام الشريف العلوي قدس الله روحه واعيد بناؤها من جديد فجاءت في غاية الاحكام والحسن والابداع والاتقان ، وفرغ من بنائها عام 1256 وجل المصروف عليها من بيت المال وبعضه من الاحباس وقد قيل ان ما صرف عليها وقتئذ ثلاثة الاف ريال على ما للمؤرخ الشهير الفقيه السيد محمد بن علي الدكالي السلوي في كتابه الاتحاف الوجيز في تاريخ الرباط وسلا المهدي لمولاي عبد العزيز ومن ذلك الحين وهي قائمة البنيان متينة الاركان لم يطرأ عليها اي تغيير اللهم الا ما وقع من اصلاح مدارجها ايام مولانا الملك الراحل فخر السلاطين العظام وبطل التحرير الهمام سيدي محمد الخامس قدس الله روحه ، فقد ابت اريحته الشماء الا ان يشارك اسلافه المعظمين بجعل اثر ظاهر وعمل باهر يرد المسجد المذكور الى شبابه ويحليه من قشيب الاصلاح انفس ثيابه ، فامر قدس سره باعادة سائر برشلاته المتلاشية والمتداعية وتنظيف ما عداها وتقشير حيطانه وتجبيصها وفتح باب آخر به امام سيدي احمد الطالب لتسهيل الدخول والخروج حيث يقع ازدحام عظيم للمصلين في الجمع والاعياد في مساحته البالغة خمسة الاف وسبعمائة متر ونيف ثم اصلاح باب ضريح الولي الصالح سيدي عبد الحليم الغماد المتوفي سنة 590 والذي يوجد في الصف الاول من المسجد قرب باب العقبة الكبيرة وغير ذلك ، جزاه الله احسن الجزاء ، وكان الامر بقيام عملية تلك الاصلاحات عام 1358 ولما اجاب مولانا داعي ربه وانتقل الى جوار جده عليه الصلاة والسلام قام ابنه البار عاهلنا المفدى الامجد وامين اسراره البطل الاوحد جلالة مولانا الحسن الثاني المكلوء من الله

بالسبع المثاني فاصدر حفظه الله ووفقه امره الشريف لوزارة عموم الاوقاف الاسلامية بتأسيس بناء مساجد اخرى في جميع انحاء مملكته الشاسعة الاطراف واصلاح ما افتقر مما كان موجودا منها قبل بواسطة وزيرها الحالي الفقيه الارشد الغيور الاسعد سيدي الحاج احمد بركاش الرباطي فقام بعملية البناء والاصلاح يوالي جهده وعنايته واهتمامه في الغدو والرواح لانجاز تلك الاوامر المولوية الشريفة طبق التعليمات الملكية المنيفة فكان من حظ المسجد المتحدث عنه ان ادخلت عليه في هذه السنة 1381 تحسينات مهمة كاعادة تجبيصه ودهن جميع سقفه وتسقيف مقصورته واحداث ابواب زجاجية لاقواس صحنه الخارجي لوقاية المصلين من ضرر البرد وشدة الرياح وغير ذلك ابقى الله مولانا ذخرا لهذه الامة المغربية المتعلقة باذياله ووقاه كيد الكائدين وشرور بعض الملحدين وحسد الحاسدين ، وادام وجوده حتى يحقق لهذا المغرب العزيز ما يصبو اليه من اعمال الخير والسعادة والرفاهية والازدهار .

ومسجد له هذه الاهمية بين مساجد المدينة ويحظى بتلك العناية من الملوك المتعاقبين كان طبيعيا — في وقت اتخذت فيه المساجد مدارس — ان يلعب دوره الاكبر في نشر العلم والعرفان ، فتوارد اليه المتوارذون ، وارتوى من معينه الطلبة المتعطشون ، وقصد حلقاته من هم الى المعرفة متشوقون ، فتخرج منه علماء اكابر ، واساتذة انجلت بنورهم الدياجر ، وتفتحت بهم البصائر .

فما كانت تقوم به مدينة سلا وتتنفذ في الميادين الثقافي والروحي من العسير استقصاؤه في هذه العجالة سواء بالنسبة لعلماء تلك العصور وما قاموا به من بث روح ثقافتهم المفيدة او بالنسبة لادبائها وصلحائها واشرافها وفضلائها فانها قد افردت بالتاليف الكثيرة وحلى بها السادات المؤرخون كتبهم القيمة في كل عصر منها ويكفي ما كتبه في آخر عصر من عصورها العلامة الاشهر والمؤرخ الاكبر سيدي احمد بن خالد الناصري السلاوي في كتابه الاستقصاء في تاريخ المغرب الاقصى وما قام به بعده تلميذه الفقيه الاديب المؤرخ سيدي محمد بن علي الدكالي السلوي في كتابه الاتحاف الوجيز وحدائق الازهار وغيرهما مما يدل دلالة قطعية على ان سوق الثقافة بسلا كان حافلا زاهيا رائجا رابحا لم يركض زلال معينه ولن يرجع القهقرى في اي زمن من ازمانه ونظرا لرغبة الراغبين واتحافا لاسماع من لا يزالون ظاهرين اخترت ان اذكر نبذة وجيزة من اعيان علماء هاته المدينة العاملين وجها بذتها المحققين تبركا بذكرهم واستنشاقا لعرف باقة فنون ازهارهم الدالة على علو كعبهم وعظيم مقامهم وعرفانهم مما يعطي صورة عما كانت عليه الثقافة في تلك الازمنة بسلا مقتصرا على بعض الاعلام منهم فقط مبتدئا بعميدها ابي العباس احمد بن قاسم بن عشرة ، باني المسجد الاعظم وهو المترجم له صدر هذه الكلمة ، وثانيهم الشيخ الكبير والعلامة الشهير سيدي عبد الله اليابوري الاندلسي الاصل السلوي المقر الرباطي المدفن ، كان رحمه الله على قدم كبير من المعرفة بالله اخذ عن شيوخ اعلام ، ومحققين عظام ورد من بلدته يابورة احدى مدن الاندلس وحل بمدينة سلا واستوطنها ، وقد ذكر له العلامة الفقيه ابو العباس احمد بن عاشر الحافي ابياتا يتشوق فيها الى بلدته يابورة تدل على عظيم مكانته في الادب والشعر وطول باعه فيها مطلعها :

سل البرق اذ يلتاح من جانب البلقا
اقرطي سلمى ام فؤادي حكى خفقا

ولم اسبلت تلك الغمامة دمعيا
اربعت لوشك البين ام ذاقت العشقا

غريب باقصى الغرب مزق قلبه
فاوت سلا فرقا ويابورة فرقا

اذا ما بكى او ناح لم يلف مسعدا
على شجوه الا الحمائم والورقا

ومنها :

حياء يغض الطرف الا عن العلا
وعرض كماء المزن في الخرق بل انقى

وفضل نمير الماء قد خضر الربى
وعدل منير النجم قد نور الافقا

بلغنا بنعماك الاماني كلها
فما بقيت امنية غير ان تبقى

توفي رحمه الله برباط الفتح في أوائل المائة السابعة ، وضريحه بظهر العلو ، معلوم .

ومنهم الفقيه العلامة الشيخ المقري ابو الحسن علي بن موسى بن اسماعيل المطماطي ذكره سيدي يحيى السراج في فهرسته من مشايخ اشياخه في

ترجمة ابي عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الرعيني الاندلسي الفاسي قائلا ان الرعيني اخذ عن الشيخ المقري ابي الحسن علي بن موسى بن اسماعيل المطماطي لقيه بسلا في تاسع جمادي الاولى سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة ومن مشايخ هذا الفاضل اعني المقري ابو الحسن علي بن بري الرباطي ، ومن تلامذته الاستاذ العلامة الحافظ عبد الله بن يوسف العثماني المعروف بابن الصباغ السلوي وغيره توفي في ربيع الاول سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ودفن خارج باب المعلقة احد ابواب سلا كما في الاتحاف .

ومنهم ابو الفضل عبد الله بن المجراد السلوي المحدث الحافظ الراوية العلامة الصالح القدوة محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلوي الشهير بالمجراد ، قال في بلغة الامنية كان رجلا صالحا حسن السيرة صادق اللهجة انتفع الناس به وظهرت بركة نيته الصالحة على كل من عرفه او لازم مجلسه او قرأ عليه من صغير وكبير . توفي بسلا على الصحيح يوم السبت رابع جمادى الاولى عام ثمانمائة وخمسة عشر ودفن خارج باب المعلقة قريبا من برج الدموع ، له تآليف مفيدة في النحو والتصريف والقراءات غالبها متداول بايدي الناس معروف له القدم الراسخ في سائر العلوم اخذ عن مشايخ عدة كلهم اعلام من اهل سلا وفاس وسبتة ، وترجمته واسعة رحمه الله رحمة واسعة .

ومنهم العلامة الفقيه القاضي الخطيب المشارك ابو سعيد ابن ابي محمد بن ابي سعيد السلوي من اعيان مدينة سلا وادبائها واكابر علمائها ، ذكره ابو العباس المقري في نفح الطيب في ترجمة الامام ابن عباد وذكره ايضا معاصره الامام ابن غازي في شرح الفية ابن مالك في باب الفاعل . : قائلا ورد علينا ايام كوننا بمكناسة من اعيان سلا الاديب محمد المجيد ابو سعيد محمد بن ابي سعيد وذلك زمن الشبيبة ففاجاني بقوله:

يا قارىء النحو من الفية جمعت
في النحو معظم ما في النحو قد قيلا

ان كنت تفهمها فهما تجيد به
اسرارها حيث تخفى الاقاويلا

فاي فعل بها قد جاء فاعله
فعلا وما فاعل قد جاء مفعولا

قال ابن غازي فالقى الله في روعي انه اراد ويرفع الفاعل فعل فقلت مجيبا :

فدتك نفسي لقد احسنت تمثيلا
وفقت كل الورى نظما وتسجيلا

يا حسن احجية في باب فاعلها
من بعد اربعة في النظم تكميلا

فاقر رحمه الله انه ما اراد الا ذلك واظهر استعظام الفتور على ذلك .

ومنهم الولي الصالح والبركة الواضح ابو محمد عبد الحليم الغماد المرسي السلوي ، كان رحمه الله عجيب الحال له كرامات ومكاشفات ، قال في التشوف انه عبد صالح يمشي الى المكاتب ويستوهب الدعاء من الصبيان ويبكي على نفسه وهو من اهل سلا ، قال صاحب كتاب الاتحاف الوجيز كان سيدي عبد الحليم الغماد رضي الله عنه من اشياخ الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي ذكره في كتابه ، الفتوحات في آخر باب منها وهو الباب 560 بما نصه وكان شيخنا عبد الحميد الغماد بمدينة سلا اذا راى شخصا راكبا ذا اشارة يعظمه الناس وينظرون اليه ، يقول له ولهم تراب راكب على تراب ثم ينصرف ويقول :

حتى متى والى متى تتوانى
اتظن ذلك كله نسيانا

ومنهم ابو القاسم الادريسي السلوي ، قال السوداني في نيل الابتهاج ابو القاسم الادريسي السلوي به اشتهر من اكابر تلامذة ابن عرفة واخذ عن احمد بن ادريس البجائي وغيرهما ، واخذ عنه ابو القاسم بن ناجي ونقل عنه في شرح المدونة ، ومن تآليفه تقييد في التفسير عن ابن عرفة في مجلدين اثنين واكمال الاكمال على مسلم في مجلد ضخم كبير اقتصر فيه على ابحاث ابن عرفة واصحابه نفيس للغاية .

ومنهم ابو عبد الله السلوي التلمساني ، قال القاضي ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون في تاريخه العبر الفقيه المشارك ابو عبد الله السلوي التلمساني ورد على تلمسان خلوا من المعارف ثم دعته همته الى التحلي بالعلم فعكف في بيته على مدارسة القرءان فحفظه ورواه بالسبع ثم عكف على كتاب التسهيل في العربية ثم على مختصر ابن الحاجب في الفقه والاصول ولزم الفقيه عمران المشدالي وتفقه عليه وبرز في العلوم الى حيث لم تلحق غايته وقتل يوم فتح تلمسان ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة كما في الاتحاف الوجيز رحمه الله .

ومنهم الفقيه العلامة ابو بكر الفرجي السلوي المراكشي الاصل ، قال الحافي كان رضي الله عنه عالما بالفقه والبيان والبديع والمنطق والنحو والمعاني والتصريف واصول الفقه واصول الدين وعلم العروض وعلم الجدل وغير ذلك ، وكان معظما لآل النبي (ص) وربما يستدين ما يواسيهم به ، وكان ناظما ناثرا حافظا للتاريخ مستحضرا له ، وله ملكة تامة فى العلوم كلها ، له تآليف ، منها شرح على السعد وشرح على السلم وغير ذلك من التقاييد ، من عمدة مشايخه شيخ الجماعة بمراكش ، ابو العباس سيدي احمد العطار المراكشي الاندلسي وغيره من مشايخ مراكش ذكره الحافي ، وقال انه قرا عليه النحو والبيان والمعاني والبديع والمنطق والاصول والعروض والحديث والتفسير والمديح والفقه ولما حانت وفاته واحتضر لقنه بعض اصحابه الشهادة فانشد :

وغدا يذكرني عهودا بالحمى
ومتى نسيت العهد حتى اذكرا

وفتح عينيه وقال الحق ما تقول ثم قال آمنت بالله وبملائكته وبكل ما جاء به سيدنا محمد (ص) جملة وتفصيلا ثم تشهد وتوفي رحمه الله ، وذلك ضحى يوم السبت ثامن قعدة عام تسعة وثلاثين ومائة والف ، ودفن بزاوية سيدي مغيث ، وقد رثاه الحافي بقصيدة ذكرها فى الحدائق المؤرخ سيدي محمد بن علي الدكالي .

ومنهم الفقيه العلامة القاضي ابو عبد الله السوسي المنصوري من حفدة الولي سيد محمد بن منصور ، ذكره الحافي فى فهرسته ، وقال انه قرا عليه وكانت قراءته جيدة ، وعبارته بينة جامعة فى النحو والتوحيد والمنطق ، وولي القضاء بسلا ، له شرح على مختصر السنوسي فى المنطق وآخر على كبرى السنوسي توفي رحمه الله فى شعبان عام 1142 ، ودفن بزاوية الولي الصالح سيدي مغيث بطالعة سلا .

ومنهم الفقيه العلامة المجاور ابو عبد الله الدقاق الشيخ النحرير الدراكة الشهير سيدي محمد بن العدل الفقيه محمد الدقاق السلوي ، كان رضي الله عنه عالما مدرسا متفننا لين الجانب معظما لجانب اشياخه كثير الثناء عليهم ، ذكره الحافي ايضا ، وقال انه قرا عليه الفقه والبلاغة ، واستفاد منه فوائد كثيرة اخذ عن مشايخ فاس كابي عبد الله سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي وقاضي الجماعة سيدي العربي بردلة وسيدي محمد بن احمد المسناوي الدلائي وسيدي محمد بن ناصر الدرعي توفي رحمه الله بالمدينة المنورة بعد ان جاور بها اكثر من عشرة اعوام ، كان فيها ملازما لمسجد مولانا رسول الله (ص) يدرس الحديث ويحج كل عام ثم يرجع للمدينة الى ان قبضه الله بها اليه سنة ثمان وخمسين ومائة والف كما فى الاتحاف الوجيز .

ومنهم الفقيه العلامة ابو عمر عثمان التواتي قاضي سلا ، كان رحمه الله من اعلام سلا واعيانها ، ذكره المؤرخ العلامة سيدي احمد بن خالد فى الاستقصا وقال انه توفي زوال يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شوال سنة 1158 ، ودفن داخل روضة سيدي الحاج احمد بن عاشر رحمه الله .

ومنهم الفقيه الاديب الشاعر الاريب ابو محمد عبد القادر السلوي ، ذكره العلامة النسابة سيدي سليمان الحوات فى الروضة المقصودة والحلل الممدودة فى مآثر بني سودة وحلاه فيها بالفقيه النبيه العدل النزيه الحسن الاخلاق والمخطط بخطوط ابن مقلة فى كل مهراق الشاعر المطبوع الذي لا يعثر فى وتد مفروق ولا مجموع ، ابو محمد عبد القادر بن محمد السلوي الذي اربى بابداعه على كل حاضر وبدوي وانشد له قصائد ثلاث ، افتتح احداها بقوله :

او من بلى الاطلال دمعك هاطل
ام من سهاد الليل جسمك ناحل
ام من محيا كالصباح وحاجب
يرمي لمن هو عن سناه غافل

الى ان قال :

كلف الفؤاد بحبها لكنها
تهدى الصدود لكل قرم باسل
ياليتها عطفت بايسر مطلب
ليبوح بالشكوى اليها الآمل
قالت وقد علمت بفرط صبابتي
فز ، واغتنم ، فالدهر عنكم غافل

ثم تخلص لمدح شيخه الفقيه سيدي العربي بن احمد بن التاودي بن سودة الفاسي المري ، فانه لازمه وقرا عليه ، وكان له خط رائق ، قال مؤاق الحدائق رايت اجزاء من تاريخ صلاح الدين الصفدي المسمى بالوافي بالوفيات بخطه فى غاية الحسن والابداع ، قال انه فرغ من نسخه فى فاتح عام ثمانية وخمسين ومائة والـــــف .

ومنهم الفقيه العلامة الاديب الحافظ الراويـــة المحدث ابو العباس احمد بن عاشـــر بن عبـد الرحمن الحافي السلوي علامة عصره ووحيد مصره صلاحـا وجلالة ودنيا وعلما ، قرا على الشيخ الفقيه العلامـة سيدي على المكاري بالرباط كان يعبر اليه ويحضـر مجالسه فى فنون شتى وعلوم مختلفة وانتفع به النفع البين مع صدق طلبه وصفاء نيته وجودة نباهته وشدة اعتنائه وكمال محبته ، وله مشايخ عظام كالامام ابـي زكي الفاسي شارح النصيحـة وابـي علي بن رحـال المهداني المكناسي والقاضي سيدي عبد السلام الرندي والقاضي بن تاجي وابي بكر الفرجي والعلامة سيـدي احمد بن عبد القادر التستاوتي وابي عبد الله محمـد المسناوي وغيرهم الف فى مناقب الامام الشيـخ بـن عاشر الاندلسي تاليفا لطيفا سماه تحفة الزائر بمناقب ابن عاشر ، قال فيه تلميذه القاضي ابو عبد الله زنيبر شارح الهمزية من قصيدة بعث بها اليه :

حوى كل علم كل عن جمعه الـــورى
مفيد ذوي التحقيق عزي وناصـــري

وحاز فنونا مـــن معـــارف قلـــدت
بصالـح اعمـال وحكمـــة قـــادر

امام سما قـدرا وطـاب فخــــاره
به يهتدي حقـا لنيـــل المآثـــــر

لقد اشرقت شمس المعالي بافقـــه
فاصبح فردا فى العـلا والمفاخـــر

وله اشعار رائعة وقصائد محبرة فائقة له طـرر نفيسـة على شمائل الامام الترمذي وتقاييد فى فوائـد علمية وبالجملة فهو ممن تفتخر لهم مدينـة سـلا على غيرها ، عاش الى سنة 1160 ، قال صاحب الاتحاف الوجيز ولم اتحقق وفاته بالضبط ، ولكن دفن بالروضة الكبرى مما وراء الجامع الاعظم وراء سانية الحنـــاء المعروفة فى عصرنا هذا ، وقبره عليه حوش رحمه الله رحمة واسعة .

ومنهم الفقيه العلامة الشيخ المحدث البركة ابو عبد الله محمد بن الطاهر المير السلوي البحر العباب فى معرفة الحديث وتفسير الكتاب ، كان رحمه اللـــه من افاضل عصره فى العلم والدين والاجتهاد فى الطلب والعقل الرزين ، رحل لحج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، واتصل بمشايخ تلـك الافاق وشهدوا بفضله وعلو مقامه واجازوه، ولما رجع من الحج تصدى للتدريس بمدينة سلا ، وكان يدرس التفسير ، ولما وصل الى قوله تعالى « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » قبضه الله اليه ، وذلك فى التاسع عشر من شوال عام عشرين ومائتين والف ، ورثاه تلميـذه سيدي زين الدين بن رضـوان المباركـي التستاوتـي السلوي بقصيدة رفيعة مطلعها :

للـه فى خلقــه حكـم وتدبيـــر
والمرء فى ما قضى الالـه مجبـــور

فكل خطـب وان طالـت نوائبـــه
لا بـد يعقبـــه لطـف وتيسيـــر

والمرء ان عاش وامتـدت سلامتـــه
حينا فمرجعــه فى التـــراب مقبور

يسعى الفتى فى امور ليس يدركـــها
حرصا وما مسه فى الحرص تقصيـــر

هـون عليـــك فان مـا تحـاولـــه
لا بد يلحقــه فى الكــون تغييــر

ان الجهابذة الاعــلام من سلمـت
منهم صدور وبيت الـرب معمـــور

الى ان قـــال :

مات الفقيه الوجيـه الصدر قدوتنـا
عن النهـا والدهــا محمد الميـــر

وهي طويلة ذكرها صاحب الحدائق ولصاحب الترجمة اتصال كبير بامير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله حسبما بالاتحاف الوجيز رحم الله الجميع بمنه وكرمه وغيرهم وغيرهم كثير ممن افردت تراجمهم بالتآليف .

اما المسجد المسمى بمسجد الشهباء بمدينة سلا فلم اقف على تاريخ بنائه بكامل الدقة والتحقيق وغاية ما عثر عليه بخط المؤرخ الفقيه سيدي محمد بن علي الدكالي السلوي فى الاتحاف ان اقدم مسجد بسلا المسجد المسمى بجامع الشهباء القريب من ضريح سيدي علي بن ايوب ، والغالب على الظن ان الذي بناه هو يوسف بن تاشفين اللمتوني ، فانه امر ببناء المساجد بفاس وغيرها من مدن مملكته فى كل حومة وكان هذا الجامع هو المسجد العتيق وبه كانت تقام الخطبة قديما قبل ان يبنى الجامع الاعظم بطالعة سلا ثم نقلت اليه وفى دولة عبد المومن الموحدي بنيت المساجد بسلا ، وقد بسطت الكلام على جامع الشهباء ووصفت حاله القديم فى كتابنا الحدائق ه .

نعم افادني بعض علماء سلا ان وجه تسميته بجامع الشهباء هو ان عمده اي سواريه الحاملة لاقواسه وحناياه كانت شهباء اللون من حجر صلد شبيه بالرخام ولا زال بعضها موجودا الآن بالمسجد المذكور .

سلا : **محمد بن عمر العلوي**



مسجد للا عودة بمكناس

مقتطفات من دراسة لهنري طيراس

مقتطفات من دراسة لهنري طيراس ـ نشرت بالجزء الثاني من نشرة المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية في افريقيا الشمالية ـ ابريل 1938 .

عندما اعتلى المولى اسماعيل العرش ، قرر ان يرفع مدينة مكناس ، حيث كان يقيم كعامل ، الى درجة عاصمة . وكان همه الاول ، توسيع القصبة المرينية القديمة وبناء قصر فيها ، هو قصر الدار الكبيرة ، حيث شيد مسجد جامع فسيح الارجاء ، هو مسجد لا لا عودة . ويذكر لنا الزياني ان الاشغال استمرت في الدار الكبيرة من سنة 1082 هـ ـ (1672 م) ، سنة اعتلاء المولى اسماعيل العرش ، الى سنة 1090 هـ . (1680 م) . ومن جهة اخرى ، تعطي الكتابة الكوفية على المقصورة ، 1088 ، وهو ما يمكن اعتباره تاريخ انتهاء المسجد ، واذا كان المولى اسماعيل مسلما شديد التقيد بتعاليم دينه ، فهو لم ينس ، بدون شك ، ان يدخل المسجد في الاشغال الاولى للدار الكبيرة . يمكن ان نسلم اذن ، بان مسجد لا لا عودة بني من سنة 1082 هـ . (1672م) الى سنة 1088 هـ . (1678م) . وقد كان اول مسجد كبير بناه المولى اسماعيل ، ورغم تشييده قصورا جديدة نحو الجنوب الشرقي ، بعيدا عن الدار الكبيرة ، ظل دائما مسجد المدينة السلطانية ، حيث يحضر السلطان صلاة الجمعة .

يمتد مسجد لا لا عودة بين سورين ، ففي الشمال الغربي الجدار الذي يحد المشور الكبير للدار الكبيرة ، وفي الجنوب الشرقي ، سور داخلي للقصبة. وللمسجد مدخلان ، فجمهور المؤمنين كان يدخل من بابين يخترقان جدار المشور ، وكان للسلطان مدخله الخاص من راس المسجد ، وكان يدخل الى مكانه الخاص امام المحراب ـ مقصورته ـ بعيدا عن اعين الجمهور ، بواسطة ممر مسقف كان يؤدي الى احد قصور دار كبيرة ، هو قصر الستينية .

والمسجد عبارة عن مجموعة متسعة طولها 106 امتار وعرضها 48 مترا ، وينقسم الى مجموعتين من الابنية ، ففي الجنوب الشرقي ، المسجد بمعنى الكلمة ، وفي الشمال الغربي مجموعة من الملحقات تحتوي : ميدان أو مشور ، ودهاليز للمرور ، ومرحاض ومدرسة . ويربط بين هذه الملحقات والمسجد ذاته دهليز طويل .

* * *

لمسجد لا لا عودة ، قبل كل شيء ، قيمة شهادة تاريخية . فهو يعبر عن بعض ملامح السياسة الدينية للعلويين الاولين . فصفة الشرف التي كانت تسوغ

امساكهم بزمام السلطة ، كانت تقتضي منهم التزامات خاصة . ليس فقط ان العلويين كان يجب عليهم أن يعطوا المثال على التقوى ، بل كذلك كان يجب على الشريفات أو زوجات الشرفاء أن يشتركن فى صلاة الجمعة ، بعيدا عن اعين الرقباء . ولم تتطور مقصورة النساء قط مثلما تطورت فى مسجد لالا عودة ، فالى جانب المكان العادي المخصص للنساء فى الابهاء الجانبية للصحن ، هناك قاعة فخمة مقفلة خاصة بالنساء . ومن جهة اخرى ، كان المولى الرشيد قد اشتهر انه صديق الطلاب وحاميهم ، وقد بنى لهم فى فاس مدرسة الشراطين وفى مراكش مدرسة بن صالح . وقد اظهر المولى اسماعيل ، منذ بداية عهده ، نفس العناية بهم .. ففي أول مسجد كبير بناه ؛ أي فى المسجد الجامع لقصره بالذات ، شيد لهم مدرسة وقاعة للدروس .

والمسجد ، شهادة اركيولوجية (اثرية) ثمينة ، ايضا . فهو يقدم لنا مثالا جميلا عن مسجد القصر . وهو داخل فى حظيرة المدينة السلطانية ، ويمتلك مشوره الخاص ومدرسته . وهو يتصل بالقصر بواسطة ممر مقفل ، خاصة . فمعماريو المولى اسماعيل قد طبقوا من جديد تقليدا قرطبيا قديما ترك العمل به من دون شك فى القرون التالية ، فلا نجد شيئا مشابها ، لا فى مسجد قصبة مراكش ، ولا فى المسجد الكبير بفاس الجديد . وقد كان للمولى اسماعيل حتى فى مدخل المسجد مرحاض لاستعماله الخاص ، بينما كان يكتفى فيما قبل بتهييء حوض صغير فى زاوية من زوايا حجرة الامام .

وهذا الحرص على عدم اختلاط العاهل بعامة رعاياه ، يظهر فى جميع الترتيبات الخاصة بهذا البيت الديني . فالمشور ، وهو المدخل الوحيد فى المسجد ، الذي كان فى متناول الجمهور ، كان من الممكن حراسته واقفاله لاول خطر . وفى القرون السابقة ، لم تكن مساجد القصور المغربية محصورة داخل بناء القصور . فقد كانت ، كجميع المعابد الاخرى ، تفتح للجمهور من عدة ابواب ، ثلاثة على الاقل ، محفورة على ثلاث من واجهاتها . وفى عهد المولى اسماعيل ، بدأت الحياة فى القصبة السلطانية تنفصل اكثر فأكثر عن الحياة فى المدينة التجارية . ولا يظهر أن احدا من الملوك (غير المولى اسماعيل) اظهر ، منذ بداية ملكه ، مثل هذا الحذر من رعاياه ، ولا احد تمسك مثله باداء الصلاة وهو تحت الحراسة الجيدة ، فى مامن من كل اعتداء .

ومن اجل اعداد البرنامج المعماري لمسجد القصر هذا ، اعتمد معماريو المولى اسماعيل تقليدا (فنيا – معماريا) يرجع للعصر السابق ، ولكن مع افقاره . فبيوت العبادة السعدية الكبرى فى مراكش، باب دكالة ، المواسين ، سيد بن العباس ، تكون مجموعات معقدة تحوي بالاضافة الى المسجد ذاته : مرحاضا عظيما ، ومدرسة ، وسقاية غالبا ما تحمل فوقها مدرسة قرآنية . ولكن هذه البنايات ، كانت تتجمع بنوع من الحرية فى الشارع وحول الساحة التي تجاور الجامع . كل هاته العناصر جاءت تنتظم هنا (فى مسجد لالا عودة) ، باستثناء المسيد فى اقصى ساحة المدخل . وقد خصصت الميضة (المرحاض) للمسجد فقط ، واصبحت السقاية قوسا بسيطا مزخرفا فوق حوض ضيق . فالبرنامج المعماري الجميل الذي اقتبسه المعماريون السعديون عن فن المماليك ، قد صغر واضعف .

ومخطط مسجد لالا عودة وملحقاته ، ان لم يكن له شرف الاصالة ، فله على الاقل حرية المنطق . والداخل الى المسجد يفاجأ بوضوح الترتيب واتساع النسب . لكن المخطط (المأخوذ عن الجامع الآن) لم يعد يعطي هذا الانطباع بالتناسق ، بنفس الدرجة ، فسمك الجدران ، المتغير جدا ، غير منطقي فى غالب الامر ولا يعبر دائما عن تقسيمات البناء الرئيسية . وعدم التساوي هذا فى التفصيل يقضي جزئيا على التوازن الجميل الموجود فى جملة البناء . ويشعر بأن مخطط البناية قد وضع فى نفس المكان ، من دون أن يعتد بعناية على الرسم .

ان فن المولى اسماعيل ، فى آثاره الاولى – وفى احسن هذه الآثار – هو اذن فن بعيد عن التبشير بتجديد او تقدم . ففي كل جانب تختلط اخطاء كبرى فى التنفيذ بانماط من الالهام جميلة . ففن البناة لم يكن فى مستوى حبهم للعظمة وحسهم المعماري .

من نشرة المؤتمر الرابع لاتحاد الجمعيات العلمية فى افريقيا الشمالية 1938

ترجمة الاستاذ عبد اللطيف ملين

مسجد حسان وهل تم بناؤه ؟

بقلم : جان بوريلي

« نشرت هذه الدراسة فى مجلة (فرنسا ـ المغرب) ، عددي يونيه ويوليه 1925 » .

لقد اجتهد الكولونيل ديولافوا ـ فى الدراسة التي قام بها لمسجد حسان (1) ، بعد الحفريات التي اجراها هناك سنة 1914 بالاشتراك مع زوجته ـ (نشرت هذه الدراسة فى الجزء الثامن من مذكرات اكاديمية الكتابات الاثرية والآداب الجميلة) ـ أن يثبت أن هذا الاثر الذي يخفي تحت خرائبه قسما كبيرا من اسراره ، قد أكمل بناؤه ، ان لم يكن ذلك فى حياة العاهل الذي امر بتشييده ، فعلى الاقل فى عهد خلفائه .

ينبغي ان نعلم ، أن السيد ديولافوا كان ، حسب عرضه ، قد عثر ، وهو يقوم بحفرياته تحت الثلاثين الف متر مكعب من الاتربة المتراكمة على المكان ، على قطع بناء سليمة او محترقة (مشوطة) ، وصفائح من الرصاص ، وقد تعرف فى ذلك على بقايا سقفية . فاستنتج ان البناء كان قد تم حتى اجزائه الاخيرة ؛ 1) لماذا تسمى منار حسان بصومعة حسان ومسجد حسان بهذا الاسم ؟ ذلك سر من الاسرار . فعبد الواحد المراكشي الذي شاهد المسجد فى طور البناء ثم شاهده غير تام ، والذي علم لم ظل كذلك ، لايطلق عليه اي اسم من الاسماء وذلك عند عرضه لتاريخ الموحدين الذي كتبه فى بداية القرن الثالث عشر . اما الجغرافي المغربي ابن بطوطة فسماه سنة 1257 « مسجد رباط الفتح » . لكن عدة مخطوطات من روض القرطاس المكتوب سنة 1326 ببلاط فاس، تسمي المسجد « مسجد حسان » ، فهل تعطينا هذه المخطوطات نسخا مطابقة للاصل ؟ الا يكون هناك انتقال من لفظ الجامع الحسن الى جامع حسان ؟ فالرجل العادي فى الرباط او فى سلا اليوم ، يقول فى بعض الاحيان «الجامع الحسن» (*) ، وهو تعبير غامض بض الشيء يدل فى عمقه على المسجد الجميل ، المكان اللطيف ، المنظر الجميل ، وهي تسمية تطابق الواقع .

هناك افتراض آخر . يوجد فى الرباط ، خارج جدران المدينة ، فى البساتين القديمة ، مسجد قديم خرب ، كان قد اصبح ملكية لاحدى العائلات ، « ملين » . فتحت اسم « جامع ملين » كان يشير اليه الرجل العادي ، وتحت هذا الاسم صنف الجامع كاثر تاريخي . ومن المعلوم ان ارض مسجد حسان كانت قد اصبحت هي الاخرى ملكية خاصة . أفلا يكون حسان اسما لاول مالك للبستان المحاط باسوار الجامع ، فى أواخر دولة الموحدين أو فى عهد المرينيين ؟ ذلك مشكل يتطلب الحل .

(*) لاوجود لهذه التسمية اليوم ، كما يبدو ، عند رجل الشارع . (المعرب)

وهو ان لم يذهب الى حد الادعاء بأن المسجد كان يعمر بالمومنين طيلة اكثر من قرن مضى على وفاة يعقوب المنصور ؛ فقد اعتقد على الاقل أن « اعمال التشييد كانت قد انتهت » ، وأن الجغرافي ابن بطوطة عندما زار المسجد سنة 1357 ، شاهد صرحا تام البنيان .

وعند قراءة السيد ديولافوا ، يغلب على الظن ان هذا الاعتقاد اتاه عقب الحفريات التي قام بها ، وانه قد جاهر به عندما اعتقد بامكانية استخراج البرهان على اكمال البناء من نصوص التواريخ القديمة، وهذا رغم انه كان قد كتب ما يلي : « وبفرض عدم اللجوء الى ابن بطوطة والمؤرخين المذكورين سابقا ، فان الحفريات وحدها تدل على اكمال البناء » .

قبل كل شيء ، هل انتبه السيد ديولافوا الى ان النصوص التاريخية تعاكس فرضية اتمام البناء هذه ؟ وهل اعاد قراءة النصوص وانتهى ، بعد أن استوفاها تأملا ، الى تاويلها حسب ما يحلو له ؟

وفي الحق ان مسالة معرفة هل اكمل بناء مسجد حسان ام لا ، مع التقيد بكلمة الاكمال فقط ، هو سؤال لا فائدة منه ، اذ الاشتباه باق في الكلمة . ذلك انه عندما يصح ان البناء قد شيد حتى السقف ، فهل يعني هذا انه قد اتم ، كما يستنتج السيد ديولافوا ؟ فهو في الجملة ، يزعم ان البناء قد انتهى الى الغاية المتوخاة منه . وهو تعبير يحمل دلالة ذات اهمية كبرى ، كما ان وضعا مثل هذا يفترض ليس فحسب تحقيق ارادة ، ولكن ايضا حادثا سعيداً ومجيداً بالنسبة للبلاد ، وخاصة بالنسبة للاقليم الذي أقيم فيه المسجد العظيم . ان صرحا تام البناء بالمعنى الذي يقصد اليه السيد ديولافوا ، يستمد عظمته ليس فحسب من المواد التي تشكله ، ولكن كذلك من العنصر الروحي الذي ينبع من الغاية التي اعد لها . فهو مع قيامه على مادة ذات شكل ، ذو مقام معنوي اكسبه اياه ابداع معماري حي ، اي متحرك بعاطفة الرجال الذين انشؤوه لانفسهم . لقد أعطى للصرح طابعا مقدسا وقد يجوز انه لم يكن الا بناء وحسب .

ولا ينبغي التشكك في ان هذا هو تفكير السيد ديولافوا عندما يتحدث عن اتمام بناء مسجد حسان . وهاك ما يقوله على شكل خلاصة :

« لقد كان بناء المسجد أو على الاصح ، القلعة المقدسة لرباط الفتح ، واكروبول معبد النصر ، على الشكل الذي اعدنا تكوينه عليه من قبل (في دراسته)، حتى اليوم الذي تحطم فيه محترقا . فمنارته البديعة الصنع لم تكن فحسب البرج الذي من اعلاه يلقي المؤذن دعواته الى الصلاة ، لقد كان ايضا القلعة القائمة بالحراسة على شاطيء ابي رقراق ، والمتربصة في افق البحر عودة المراكب الظافرة . . . » .

« لاشك ان الخرائب قامت فيما بعد مقام المعبد . . . غير انه من اللازم كشف الاقنعة وتمزيق ظلام التاريخ ، وبعث اكبر بناء مقدس في الاسلام بين الاموات . . »

ويعتقد السيد ديولافوا انه قد قام بهذه المهمة ؟

ان هذه الفصاحة والاريحية قد عملت عملها فيما قبل ، ولكن هل تقوم على الحقيقة ؟ ان الفكرة التي تدور حولها الفقرة السابقة قد اعيد بحثها مرارا. اولا تتجاوز الحقائق المقررة عندنا فيما يخص تاريخ هذه البلاد ؟ هذا ما سيتناوله بحثنا . ولكن سنكتفي الآن في الصفحات الاولى بتحليل النصوص التي ذكرها السيد ديولافوا لننتقد فيما بعد التفسير الذي أعطاه لها .

* * *

يذكر لنا السيد ديولافوا المؤلفات التي راجع . فيسمي « تحفة النظار » لابن بطوطة ، و «المعجم» لياقوت الحموي ، و « الموازنة بين مالقة وسلا » لابن الخطيب ، و « المعجب » (تاريخ الموحدين) لعبد الواحد المراكشي ، و « تاريخ العلويين » لمحمد بن عبد السلام الرباطي ، وكتاب « القطائف » ، تاريخ الرباط وسلا ، لمحمد بن علي السلاوي ، و « تكوين البلدان » لابي الفداء ، و « تقييدات » السيد احمد عاشور الرباطي ، و « المقرب المبين » لابن زاكور ، و « روض القرطاس » لابي محمد صالح بن عبد الحليم ، و « الروض المعطار » ، وكتاب « الاستقصاء » لاحمد بن خالد الناصري ، و « نشر المثاني » ، و كتاب « الاستبصار » .

وقد لاحظنا باندهاش سكوت المؤرخين في موضوع مسجد هو عنده أوسع مسجد في الاسلام ،

اكبر في وقته من جامع قرطبة ، وأكبر ايضا وهو في خرائبه من مساجد دمشق والقاهرة والمدينة . وفي الحق ان هذا السكوت يكون فيه ما يدهش لو ان مسجد حسان قام فيما قبل ولو ساعة واحدة بالدور الذي يفترض السيد ديلافو انه قام به . فهو يورد النصوص من التواريخ التي اعتمد عليها ليقيم الدليل على اتمام البناء . وهو يعرض هذه النصوص ويقرب فيما بينها . سنتابعه الآن سطرا بسطر في تحليله .

يقول السيد ديولافوا ، « كل التواريخ التي راجعت متفقة على ان مسجد حسان هو من اعمال الامير يعقوب المنصور بن فضل الله ، ثالث خلفاء الموحدين . وليست هذه النقطة موضع خلاف .

لكن بينما يدعي مؤلف روض القرطاس ان يعقوب المنصور امر ببنائه في الوقت الذ كان ذاهبا فيه الى الاندلس للقيام بمعركة الارك ، أي في سنة 590 و 591 من الهجرة (1194 او 1195 للميلاد) ، فان عبد الواحد المراكشي في المعجب يقول بأن الاعمال في المسجد قد توبعت بدون انقطاع طيلة ملك ابي يوسف (يعقوب المنصور) ، وبالتالي فهو يرجع تأسيس المسجد الى سنة 580 للهجرة (1184م) ، أي الى عشر سنين من قبل (❊) .

هذا تأويل النصوص موافق للفكرة التي سيدافع عنها السيد ديولافوا ، أي ان المسجد والصومعة « عملان منبثقان عن وحيين مختلفين » كما يقول . وهذا جائز . « وان المسجد مدرسة سابقة لتلك التي يمكن ارجاع البرج اليها » . وهذا جائز ايضا ، على شرط الا تكون لهذه المدارس علاقة « بالعدوة ») ، وان انجاز المسجد سابق على اول حملة قام بها يعقوب المنصور لاسبانيا بينما بناء الصومعة لاحق عليها » . وهذا غير مستحيل ولكن مشكوك فيه .

اما مؤلف روض القرطاس فيتحدث بتجرد ، قائلا . . « ولما تمت له البيعة واطاعته الامة ، كان اول شيء فعله انه (صنع وصنع . .) . . . وحصن البلاد وضبط الثغور . » ويقول بعد ذلك « وكان لما جاز الى الاندلس لغزوة الارك المذكورة امر ببناء مدينة رباط الفتح من ارض سلا وبناء جامع حسان ومناره . » ❊

وهاك ما يقوله عبد الواحد المراكشي ، « ولما استوثق امره ، (بعد توليه الملك) عبر البحر بعساكره (كان في اسبانيا عند موت والده) ، وسار حتى نزل مدينة سلا ، وبها تمت بيعته . . . ثم شرع في بناء المدينة الكبرى التي على ساحل البحر ونهر (الرباط) وكان هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدا في بنيانها فعاقه الموت المحتوم عن اتمامها . فهل يخالف هذا النص « روض القرطاس » الذي يقول « ولما تمت له البيعة . . . حصن البلاد وضبط الثغور » ؟ كلا ، كما يبدو . وهذه هي الفرصة التي يمكن افتراضها ، ان المنصور وضع فيها مخطط الرباط « وشرع في البنيان» ويتابع المراكشي ولكنه ، بكل وضوح ، لا يشير الى الحوادث المعاصرة لتقلد المنصور الحكم ، ولكن الى مجموع الاعمال المنجزة في عهده في أوقات غير محددة، تلك التي « عاقه الموت عن اتمامها » . وقد كتب ياقوت ملقيا بنظرة واحدة على عهد المنصور . . « الى ان اتم سورها ، وبنى فيها مسجدا عظيما كبير المساحة . . . » كلا ، لا يمكن ان نستنتج من هذا النص المكتوب سنة 625 ، أن الاعمال في مسجد حسان قد شرع فيها منذ بداية عهد يعقوب المنصور . وينتهي النص على الشكل الآتي . . « ولم يتم هذا المسجد الى اليوم . . . واما المدينة فتمت في حياة ابي يوسف

❊) « المعجب » ، طبع القاهرة ، تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، ص . 265 و 266 .

❊) « الانيس المطرب روض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » للشيخ ابي الحسن علي بن عبد الله بن ابي زرع الفاسي وقيل لأبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي . ص . 154 و 163 من طبع فاس (بدون تاريخ) ، وانظر طبعة أوبسالا (بالسويد) ، ص . 150 ، حققه ونشره مع ترجمة الى اللاتينية المستشرق السويدي كارل يوحنا تيورنبرغ سنة 1823 .

ملاحظة : جميع الاحالات على المراجع العربية هي للمعرب .

وكملت اسوارها وابوابها وعمر كثير منها » (*) .
ويقول مؤلف روض القرطاس « لما جاز الى الاندلس (الغزوة الثانية) امر ببناء مدينة رباط الفتح ... و جامع حسان ومناره » .. (*) اما المدينة فهي القصر ودور السكن . فما امر به بعد توليه الحكم ، هو بدون شك ، بناء الاسوار والاستعدادات الخاصة بالمدينة ، وذلك حسب المخطط الذي وضع من قبل . (سنرى فيما بعد كيف وعمن اخذ فكرة هذا المخطط) ويتابع المراكشي قائلا .. « ثم خرج (الى مراكش) بعد ان رتب اشغال هذه المدينة وجعل عليها من امناء المصامدة من ينظر في امر نفقاتها وما يصلحها » .. ثم يزيد المراكشي قائلا .. « فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته الى سنة 594 » وهذا لا يعني ان الاعمال في المسجد قد توبعت حتى النهاية في السنين العشر الاولى في استقلال عن المنارة . فليس من المؤكد اذن ارجاع بناء المسجد من سنة 590 الى 580 لتفسير الفرق في اسلوب البناء بين الصومعة والمسجد . فقد يرجع هذا الفرق الى سبب آخر غير الفاصل الزمني .

ويتابع السيد ديولافوا مؤيدا فكرته الاولى ..

« ومن جهة اخرى ، بالرغم من كون المسجد يكشف في جميع اجزائه عن عمل مرهق ومستعجل ، من الصعب التسليم مع روض القرطاس بانهم استطاعوا بناءه في خمس سنين ، اي من سنة 590 الى سنة 595 من الهجرة » .

ولكن مؤلف روض القرطاس لا يقول هذا . فهو لا يشير ابدا الى اتمام بناء مسجد حسان . بل كل شيء يدل على عكس ذلك في الفقرة التي يعتمد عليها السيد ديولافوا ، وهو ان المنصور عندما رجع الى العدوة بعد معركة الارك لم يكن المسجد تاما ، وان العاهل لم يعر هذا الامر كبير اهتمام — وذلك لانه كان الرجل الذي لا يهتم الا للابنية التامة البناء . وفي الواقع نجد في روض القرطاس ما يلي .. « ولما كمل جامع اشبيلية وصلى فيه — المنصور — أمر ببناء حصن الفرح على وادي اشبيلية وارتحل الى العدوة قافلا الى المغرب فلم يقل اذن بانه ، اذ كان مر على سلا قد توقف ليشاهد مسجدا انهي بناؤه ، حسب السيد ديولافوا ، بعد بضعة اشهر من هذا المرور اي في شهر شعبان سنة 594 (1197م) . » فوجد كل ما أمر به من البناء قد تم مثل القصبة والقصور والجامع والصوامع » (وذلك لان مراكش كانت عاصمة ملكه ومركز هذه السلطة العظمى التي كانت تعتمد على قبائل مصمودة بين الاطلس وام الربيع . فقد كان العمل فيها بطبيعة الحال اكثر اتساعا منه في سلا) « وانفق في ذلك كله من اخماس غنائم الروم » . (*)

« واني اميل الى الاعتقاد ، يزيد السيد ديولافوا قائلا : « بأن المسجد قد شرع فيه حوالي سنة 585 ، اي قبل الغزوة الاولى ، بواسطة معماريين محليين تابعين لتقاليد المدرسة الرومانية البزيطية التي كانت باقية في المغرب الافريقي قبل الاتحاد السياسي بين الاسلام الاسباني والاسلام المغربي . ففي هذه الحالة يكون البناء في المسجد قد استمر عشر سنين (من سنة 585 الى سنة 595) . اما المنار حيث تتمثل احسن نماذج الفن الاسباني الاندلسي ، فينبغي ارجاع الشروع فيها الى سنة 592 ، وهي السنة التي تلت انتصار الارك » .

ان هذه الافكار المتعلقة بالاساليب المعمارية والعلاقات السياسية بين البلدين هي ولا شك افكار جد دقيقة ، بيد ان النصوص الموردة لا تسمح للباحث ان يستنتج أن المسجد الذي شرع في بنائه سنة 585 كان في طور البناء في الوقت الذي وضع فيه أسس المنارة ، وان العمل العظيم كان قد اشرف على نهايته .

* * *

القسم الثاني ..

ان الاعتبارات التي حللنا الآن لا تكتسي اية اهمية بالغة . ولكن هاهي ذي الآن مسألة هامة .

يقول السيد ديولافوا .. « يبقى علينا ان نبحث هل انقطعت الاشغال ، كما يزعم في غالب الاحيان ، عند موت يعقوب المنصور ولم تستأنف بعد ذلك ابدا ،

(*) نفس المرجع السابق (المعجب) .
(*) روض القرطاس . نفس المرجع السابق .
(*) روض القرطاس ، ص 163 طبعة فاس . او ص 150 طبعة أوبسالا .

ام ان المسجد قد انهي بناؤه ؟ نقرأ في المعجب ما يلي .. « ولم يتم هذا المسجد الى اليوم (مسجد حسان) ، لان العمل ارتفع عنه بموت ابي يوسف (يعقوب المنصور) ولم يعمل فيه محمد (الناصر ، ابن المنصور) ولا يوسف (ابن الناصر) شيئا . واما المدينة (رباط الفتح) فتمت في حياة ابي يوسف وكملت اسوارها وابوابها وعمر كثيرمنها .... ثم خرج من (الرباط) بعد ان رتب اشغال هذه المدينة وجعل عليها من امناء المصامدة من ينظر في امر نفقاتها وما يصلحها . فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته الى سنة 594 (وهي السنة التي توفي فيها) » (※)

ان الطريقة التي يلح بها المؤرخ المراكشي ، مع تحفظه ، ليقرر ان البناء توقف بموت يعقوب المنصور ، وانه لا ابنه ولا حفيده اتم البناء ، وان المسجد كان غير تام سنة 621 وهي السنة التي كتب فيها المؤلف كتابه ، كل هذا كان من شأنه ان يلفت انتباه السيد ديولافوا . غير ان هذا العالم الاثري كانت قد استحوذت عليه حينئذ حفرياته الاثرية . كان يعتقد كما يقول « بأنها (اي النصوص السابقة) تدل على انهاء المسجد» ولذلك لم يبق له الا ان يشكك في شخصية مؤلف المعجب وان يخلط بين الازمنة ويرد شهادة رجل يمتاز عليه « بالمشاهدة العيانية » وكان قد شاهده غير تام . » وهذا ما كتب هو نفسه قائلا .. « يبدو ان معجب عبد الواحد المراكشي نقل بكل بساطة فقرتين من روض القرطاس المشار اليه . وفي الواقع يذكر هذا المؤلف التاريخي ، وهو يسجل تاريخ ملك يعقوب المنصور ، يذكر المسجد والمنارة مرتين . فهو يقول في المرة الاولى .. « وكان لما جاز (يعقوب المنصور) الى الاندلس لغزوة الارك المذكورة امر ببناء (هذا وذاك) ... مدينة رباط الفتح من ارض سلا وبناء جامع حسان ومناره » . (※) ثم يكتب قائلا في موضع آخر ، وهو يستعرض الاحداث الرائعة التي وقعت في عهد الموحدين ما يلي .. « وفي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بنى رباط الفتح وتم سوره وركبت ابوابه ، وفيها بنى جامع حسان ومناره فلم يتم » (※) ان الجزء من الجملة الذي اشرت اليه ، يتابع السيد ديولافوا ، المكتوب بالمفرد ، يمكن ان يفهم بالعربية ايضا بالجمع ، وعلى هذا الشكل ايضا فهمه مؤلف المعجب . » (※)

كل هذا جيد جدا . وقد يكون من الجائز او من الواجب ان تقرأ فقرة روض القرطاس (وقد قراهما مترجمه الى الفرنسية السيد بوميي (※) « جامع حسان ومناره » بالجمع) ، كما قراهما السيد ديولافوا . لكن مع الاسف ، فان عبد الواحد المركشي كان يعيش كما هو معلوم في سنة 621 (1222 م) ، وفي هذا التاريخ كتب كتابه بوصفه مشاهدا عيانيا (※) للحوادث ، بينما كان يعيش ابو محمد صالح بن عبد الحليم في سنة 726 هـ ، وهو التاريخ الذي كتب فيه كتابه الجميل روض القرطاس . فلو كان لاحدهما ان ينقل عن الآخر ، لكان الناقل بكل تأكيد ، الذي عاش منهما بعد الآخر بأكثر من مائة سنة .

لم يلاحظ السيد ديولافوا ذلك . فهو يتابع قائلا .. « وغير ذلك تماما تأويلات مؤلف كتاب القرطاس ومحمد بن عبد السلام الرباطي في تاريخ العلويين ، ومحمد بن علي السلاوي في كتاب القطاف ،

※) المعجب . نفس المرجع السابق .
※) نشرت الترجمة سنة 1850 .
※) شاهد عيان كان صديقا لاكثر حفدة عبد المومن في عهدي الرابع والخامس من امراء الموحدين .
※) روض القرطاس ، طبع اوبسالا ، ص 150 .
※) روض القرطاس ، طبع اوبسالا ص 179 .
※) عبارة « فلم يتم » تعود على الجامع لان المنار معطوف عليه . ويمكن فهم عدم اتمامها معا من المعنى لا من اللفظ ، اذ لو كان المنار اتم لنص عليه المؤلف . ومن الواضح ان هذه العبارة « فلم يتم » لا يمكن ان تدل على الجمع في هذا المقام كما توهم الباحثون الفرنسيون . وربما اوقعهم في الخطأ ، ان الفرنسية لا تحتوي على صيغة المثنى . اذ لو اراد مؤلف القرطاس الدلالة على ان الجامع والمنار لم يتما كلاهما واراد ان يعبر عن ذلك بصريح العبارة ، لاستعمل المثنى عوض المفرد (لا الجمع) وقال .. « فلم يتما»

وابن الخطيب فى الموازنة بين سلا ومالقة ، ويلخص هذا المؤرخ الاخير قراءاته على الشكل التالي .. « وان كان بعض الملوك (يعقوب المنصور) ذهب الى اتخاذها دارا ، واستيطانها (الرباط) من اجل الاندلس قرارا ، فلقد هم وما اتم » (فمنارة حسان لم يتم بناؤها) . (※)

هل ينبعث التفكير ، تبعا لهذه الجملة الاخيرة .. « فمنارة حسان لم يتم بناؤها » ، بان فقرة روض القرطاس التي ترجمها السيد بوميه من الكتاب نفسه بالجمع ، ينبغي ان تترجم بالمفرد لانه معروف من جهة اخرى ان المسجد لم يتم ؟ هذا ما يريد ان يقوله السيد ديولافوا . ويمكن ان نفهم الامر على وجه آخر . فما استفاده ابن الخطيب من « قراءاته » (※) هو ، ولا شك ، ان بناء مدينة الرباط ، كما تصورها يعقوب المنصور ، كان مشروعا سيء الحظ لم ينته به الى غايته المرجوة . اما ما يقوله عن الصومعة ، فى جملة مستقلة ، فذلك كما يبدو ، ليخطر المسافر الذي يظل عند مشاهدة هذا الاثر (كما هو عند ما نشاهده اليوم ، وكما استطاع ان يشاهده بين سنة 1359 و 1363 تقريبا ، عند ما جاء الى سلا) متشككا فى معرفة ما اذا كان قد تم بناؤه ام ان قوة طبيعية نالت منه . وهو اذا لم يتحدث عن المسجد ، فذلك الاصح ، لان ما بقي منه للعهد الذي شاهده فيه لم يكن يترك اي مجال للشك فى انه لم يتم .

يزيد السيد ديولافوا ايضا قائلا .. « ان مؤلف كتاب الاستقصاء اكثر ايجازا ولكنه ايضا واضح . » ويورد هذه الفقرة للمؤلف .. « وامر (يعقوب المنصور) ببناء جامع حسان ومناره الاعظم المضروب به المثل فى الضخامة وحسن الصنعة ، قالوا ولم يتم بناؤه »※ « قالوا » ، اي التقاليد والراي العام يزعم الامر كذلك . ويفكر السيد ديولافوا على الشكل الآتي .. « الدليل على ان المسجد قد تم بناؤه ، هو ان الصومعة لم يتم بناؤها . ولكن اليس من المنطق اكثر من ذلك القول بانه كان من المعروف كون المسجد لم يتم ، وانه كان يدعي انه حتى هذه الصومعة العظيمة التي قد يظن ان عوامل الطبيعة قد نالت منها لم يتم بناؤها ؟.

على ان هناك مؤلفين لم يترددا – حسب السيد ديولافوا – فى التاكيد بان مسجد حسان قد اتم بناؤه ولا يورد السيد ديولافوا كلامهما ، وانما يقول .. «وفى النهاية ، بينما يقول مؤلف تاريخ العلويين (※) بأن المسجد لم يزل فى حال سليمة حتى زمن المرينيين (سليما لا يعني تاما) ، فان مؤلف كتاب القرطاس (※) يلح على انه قد انهي فى حياة يعقوب المنصور » .

وقبل ان نذهب مع هذه التقريرات الى نهايتها ، لنلاحظ التطور الذي اتبعه التاريخ فيما يخص اكمال التاريخ فيما يخص اكمال بناء مسجد حسان ، من خلال كتب التاريخ التي ذكرها السيد ديولافوا . ففي اوائل القرن الثالث عشر يقول عبد الواحد المراكشي وهو يتحدث بصفته شاهد عيان ، يقول بصريح العبارة ان اعمال البناء فى المسجد قد توقفت بموت يعقوب المنصور ، وانه لا ابنه ولا حفيده استانفها ، وان المسجد ظل غير تام (※) . وفى الربع الاول من القرن الرابع عشر ، بعد مائة سنة بالضبط ، يخبرنا مؤلف روض القرطاس فى سنة 726 (1326 م) من خلال تعداده لمنجزات المنصور ، ان مسجد حسان وصومعته لم يتما قط (※) . وفى الجزء الاخير من القرن الرابع

※) رسالة مفاخرات سلا ومالقة ، ص 61 طبعة الاسكندرية سنة 1958 تحت عنوان « مجموعة من رسائله » ، تحقيق احمد مختار العبادي . والعبارة بين قوسين لا وجود لها فى النصوص ، لا ادري من اين جاء بها الباحث .

※) لا يشير ابن الخطيب فى المرجع السابق الى اية قراءات . ولعل الباحث قصد استشهاد ابن الخطيب بكتب التاريخ الموجودة لعهده على ما يقول بشأن سلا ومالقا . انظر ص 63 – 64 – 65 من الرسالة المذكورة .

※) الاستقصاء . الجزء الثاني ص 174 من طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء سنة 1954 .

※) لم اعثر على هذا الكتاب ولعله مخطوط .

※) مخطوط بمكتبة الرباط .

※) ما يستعرضه من الحوادث السياسية يسمح لنا بان نفهم لما ذا توقفت مصاريف اكمال رباط الفتح .

※) كتب المعجب سنة 621 هـ وكتب روض القرطاس سنة 726 هـ .

عشر يحكي المؤرخ الاندلسي ابن الخطيب ، بعد مقامه في الرباط (*) ، ان المسجد لم يتم . وهو لا يذكر شيئا (غير هذا) عن المسجد . ثم بعد ذلك في القرن التاسع عشر ، يؤكد محمد بن عبد السلام الرباطي ان المسجد كان لا يزال « سليما » في عهد المرينيين ، وهو تعبير مليء بالالتباس لصالح اتمام البناء . ثم في نهاية القرن ذاته ، يلمح احمد بن خالد الناصري .. « قالوا ولم يتم بناؤه (أي الصومعة) (*) . واخيرا ، وفي ايامنا هذه ، في مخطوط محفوظ بمكتبة الرباط ، يؤكد محمد بن علي السلاوي ان المسجد اتم في حياة يعقوب المنصور نفسه .

وبعد هذا المؤلف الاخير ، يأتي السيد ديولافوا ليخالف ايضا . فهو يرى ان مسجد حسان كان قلعة الرباط المقدسة واكبر بيت للعبادة في الاسلام . بيت للعبادة اي مكان اصبح كذلك باقامة الصلاة فيه .

وبالجملة ، فان في ذلك مسالة الاكمال كلها . فمن وجهة النظر الاركيولوجية من المؤكد ان البناية التي تهمنا كانت مسجدا ، ولكن من وجهة النظر الدينية ، كونه استحق يوما ما هذا اللقب ، شيء أكثر من المشكوك فيه .

ان السيد ديولافوا الذي يبدو انه قام في التاريخ المغربي بأكثر الابحاث دقة فيما يخص النقطة التي تهمه ، يخبرنا بان التواريخ الاخرى فيما عدا تلك التي عددناها سابقا ، تلزم الصمت فيما يخص مسجد حسان على انه يذكر مرة اخرى تاريخا آخر ويقول .. « اذا كان التردد ممكنا في تفسير جملة روض القرطاس في حالة الافراد او في حالة الجمع ، فان فقرة لابن بطوطة ترفع جميع الشكوك . وفي الواقع ان الجغرافي المغربي الذي عاد الى وطنه سنة 757 (1357 يتحدث على الشكل التالي في « تحفة النظار » ، في موضوع مسجد بلخ .. « وخرب هذه المدينة (بلخ) تنكيز اللعين (1153 ـ 1227) ، وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه ، وهو من احسن مساجد الدنيا وافسحها . ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه . ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك . (*)

وينتج من هذه الموازنة ـ يقول السيد ديولافوا ـ ان المسجد المغربي لم يكن قد لحقه اي ضرر في سنة 1357 ، عندما زاره ابن بطوطة ، وذلك لالحاحه على الخراب الجزئي لمسجد بلخ وسكوته عن الخراب الاقل او الاكثر شمولا لمسجد حسان . اذن فمسجد يعقوب المنصور كان لايزال موجودا في اواسط القرن الرابع عشر ، اي بعد 165 من تاسيسه . اذن فقد كان حينئذ تام البناء ..

كلا ـ كما يبدو ـ فلا يمكن ان نستنتج من «سكوت» ابن بطوطة عن تهدم مسجد الرباط ، ومن كونه كان «موجودا» عندما شاهده ، انه «اكمل» . بل العكس هو الصحيح . فاذا كان هذا المؤرخ ، الذي شاهد عددا اكبر من المساجد العظيمة والجميلة في رحلاته ، قد فكر وهو امام خرائب مسجد بلخ في مسجد رباط الفتح ، او بالعكس ، فمن الممكن ان نفترض بان الحالة السيئة للجامعين هي التي جعلته وهو امام احدهما ، يفكر في الاخر بصورة طبيعية ، اكثر مما يفكر في اي مسجد آخر من هذا النوع ، وذلك حتى يقوم بموازنته .

وكان السيد ديولافوا قد عثر ، اثناء حفرياته ، «فوق ارضية البناء العتيقة» ، على درهم باسم عبد الحق ، اول خليفة في الدولة المرينية ، وعلى فلس مؤرخ بـ 700 للهجرة (1301م) . وفي هذا الموضوع يقول : « على هذه الصورة تصل الى بداية القرن الرابع عشر . وليس في نيتي ان استنتج من هذه المكتشفات الدليل على انه كان يعمر بالمؤمنين طول اكثر من قرن بعد موت يعقوب المنصور ، ولكن ذلك ، على الاقل ، علامة لايمكن اهمالها .

---

*) كان ابن الخطيب منفيا الى سلا مع ملك غرناطة محمد الخامس ومكث بها ثلاث سنوات .
*) الضمير قد يعود على الجامع وعلى الصومعة او عليهما معا . انظر الاستقصاء المرجع السابق .
*) تحفة النظار . انظر مهذب رحلة ابن بطوطة تحقيق احمد العواسري ومحمد احمد جاد المولى . طبع مصر سنة 1939 ، الجزء الاول ـ ص 317 .

فهل من الممكن ان نعتبر «علامة» دالة على اكمال بناء المسجد ، هذا الدرهم المسكين الضائع لا ادري في اية ظروف بين تلك الاسوار ؟

ويرجع السيد ديولافوا بعد هذا الى القسم الاول من دراسته ليستعرض نتائج حفرياته في المسالة فيقول : « اما عن اكمال البناء ، فان ذلك يبدو لي شيئا لا ريب . ويعتمد رايي هذا على اكتشاف اقواس صغيرة من الآجر ، وقطع من هيكل البناء ، واجزاء سقفية ، ووريقات من الرصاص ، وقطع من الزخرف، (الزليج وغيره) (✻).وشاهد في اوراق الرصاص هذه «سلسلات صغيرة» . اما اكتشاف الزخرف فيتمثل في بعض النماذج الصغيرة من الطلاء المحفور بنوع من الازاميل والمبري بالسكين من صنع جاف بعض الشيء ، وبعض القطع النادرة من الزليج « غير مبرية ولكن مقبولة » ، وبشأنها يتساءل هذا العالم الاثري : « هل اتت هذه القطع من زخرفة المسجد ؟ على كل حال فالصنع ارقى مما هو موجود حاليا في منتجات الصناعة المغربية » .

وكان السيد ديولافوا قد اكتشف ايضا «سريرا من الفحم ، وقطعا من الخشب محترقة ، وقراميد مشوظة ، مما يشهد بان حريقا كان قد دمر البناية » . وقد بدا له انه تعرف حتى على النقطة التي ابتدا منها الحريق » . وهو فوق ذلك يستخلص «البرهان على اكمال بناء المسجد» . فهو يقول : « ذلك انه لم يكن لينتشر (الحريق) الا خلال هيكل بناء في المكان » .

واخيرا ، فالسيد ديولافوا ، نظرا لجهله باسبقية المعجب للمراكشي على روض القرطاس ، يكتب قائلا: « ان الخطا الذي ارتكبه المؤرخون بعد روض القرطاس بذكرهم ان الاعمال في مسجد حسان كانت قد اوقفت عند موت يعقوب المنصور ، ينبغي ارجاعه جزئيا الى الحال الذي تبدو عليه المنارة ، فانه يقفز للعين الاقل مراسا ان البرج لم يتهدم » .

بيد ان واحدا من هؤلاء المؤرخين – كما قال السيد ديولافوا – وهو مؤلف كتاب الاستقصاء ، الذي شاهد الاثر بعينه ، قد كتب قائلا : « ويزعمون ان بناء المنار لم يتم » . فهل خامره الشك في ذلك وهو يشاهد هذا الاثر ؟

✻ ✻ ✻

اذا كنا قد ناقشنا طويلا حجج السيد ديولافوا ، فليس من اجل الوصول ، كما تحفظنا بقول هذا في بداية هذه الدراسة – الى اقامة البرهان على ان مسجد حسان لم يصل بناؤه الى السقف ، وان العمل العظيم لم يتم (من الممكن ان يكون قد اتم ، وقد يكون ذلك حتى في حياة المنصور) ، ولكن من اجل تقرير ان البناية لم تبلغ الحد الذي يمكن اعتبارها معه مسجدا .

هل في امكاننا التاكيد انه اصبح معبدا واقيمت فيه الصلاة ؟ فاذا كان ينقصه هذا العنصر الروحي، أفليس من المغامرة القول ، مثلما صنع مؤرخه الحديث ، بانه كان « أعظم مسجد في الاسلام » ؟ اذ لا يظهر ان الاسلام قد تخطى عتبته . ولم تسمح الحوادث للعاهل الذي أمر بتشييده بتحقيق مطمحه الواسع . ولذا فابعاد البناية تتجاوز العظمة الحقيقية لتاريخها ، بالرغم من ان تاريخ الموحدين تاريخ مجيد . وقد توهم اليوم هذه الخرائب بأهمية ما لمدينة الرباط في الماضي . فمن المعلوم ان بناء مدينة الرباط بأمر وحسب مخطط يعقوب بن يوسف بن عبد المومن، الذي استانف مشروعا لجده ، كان عملا سيء الحظ فقد شيدها امير المومنين كما يبدو ، ضد رغبة مستشاريه ، وكان عليه ان يسترضي الناس بالمال حتى ياتوا لسكناها . وقد هجرت مدينة سلا الجديدة (الرباط) اثر وفاة يعقوب المنشور مباشرة . وقام فيها المرينيون – على الاغلب – باعمال تخريبية كبيرة لم يفتا الزمان ان اكملها . فاصبحت البنايات العمـ والقصور القفرة اطلالا .

وفي بداية القرن السادس عشر ، لم يكن قد بقي من هذه المدينة العظيمة ، عندما زارها ليون الافريقي ، الا مائة دار ، كما يقول ، وقد عبر عن حزنه لهذا الخراب . ومن الممكن ان يكون مسجد حسان قد استعمل في ذلك الوقت ، في الفلاحة ، من جانب ساكن التجمع الصغير المحتمي بالقلعة (قصبة الاداية) ، كما

✻) ما صنع بوسائل الاقناع هذه ؟

هو الشأن اليوم (*) . ولم تكن مدينة المنصور اضحت حينئذ الا مجموعة من البساتين .

ولم يذكر التاريخ ان سلا الجديدة استعملت يوما ما كمركز لتجمع الجيوش من اجل مرورها الى اسبانيا . ويبدو ان التجمع لم يقع الا مرة واحدة ، قبل بناء المدينة في عهد عبد المومن الذي مات في ذلك الوقت وسط جيشه ، وتفرقت جيوشه في الحين .

ان القاريء وهو يتصفح التواريخ القديمة ، يضيع بين الاسماء المختلفة ، شلا وسلا ورباط الفتح ، وسلا الجديدة وسلا القديمة ، التي تبدو منطبقة على اقليم واحد بعينه . افلا يكون الترتيب الواجب اتباعه هو الآتي : فقد كانت توجد تحت الحكم الروماني ، في مصب ابي رقراق ، مدينة تسمى سلا كولونيا ، وفي اواخر القرن الثاني عشر كانت توجد على الشاطيء الايمن للنهر ، مدينة اسلامية ، يسميها مؤرخ ذلك العصر سلا القديمة ، وهي سلا ايامنا هذه — ، وفي الجزء المقفر من سلا كولونيا ، في الجانب الايسر من النهر ، بنى يعقوب المنصور مدينة جديدة ، هي ما نسميها سلا الجديدة ، وقد اصبحت هذه التسمية هي الاسم العام الذي يستعمله الرجل العامي حتى ايامنا هذه (*) . بيد ان يعقوب المنصور اراد تسميتها رباط الفتح ، فالى أي فتح يشير ؟ قد كان يظن بان الامر يتعلق بذكرى انتصار الارك الذي حققه العاهل على مسيحيي اسبانيا في 591 (1195م) بيد ان هذه الفرضية تبدو بدون اساس . ويخبرنا احد معاصري يعقوب المنصور ، في تاريخه عن الموحدين ، ان الامر كان يتعلق بنصر وعد به المهدي ابن تومرت جيوشه . وقد استعاد يعقوب المنصور او اختلق — من اجل الحصول على تأييد رجال طريقته الذين كانوا في الحكم — نبوءة للمهدي متعلقة بهذا النصر . فقد كان المهدي تنبأ بأن الموحدين بعد ان تعتورهم الخطوب الهائلة ، سيصبحون يوما وليس في حوزتهم الا مدينة واحدة على الساحل (عليهم ان يبنوها هم انفسهم) ؛ بيد انهم سيخرجون منها يوما منتصرين لغزو العالم .

اذن ، فقد بنى يعقوب المنصور المدينة القوية والضرورية « لنصر مقبل » .

ان النبوءة المستذكرة كانت بدون شك غير صادقة « وقد كان المعاصرون يشكون في ذلك » فهي لم تتحقق .

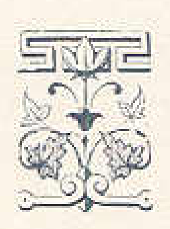
واذا كان لمدينة الرباط يوما ان تحرز — عن استحقاق — على لقب من القاب المجد ، فذلك سيكون بفضل ازدهارها الذي يرجع الى زمان قريب . وان مستقبلها ليبشر باحسن النتائج .

(*) في سنة 1925 .

(*) لا وجود لهذه التسمية عند رجل الشارع اليوم. (المعرب)

نشرت هذه الدراسة في مجلة (فرنسا — المغرب) عدد يونيه — يوليه 1925

قام بترجمة الدراسة الاستاذ عبد اللطيف ملين



الفن المعماري في المساجد المغربية حسب العصور

مقتطفات من مقدمة هنري طيراس لمساجد فاس وشمال المغرب

في مقدمة الاستاذ هنري طيراس على كتاب السيد بوريس ماسلا « مساجد فاس وشمال المغرب »، نظرات جد هامة على الفن المعماري في مختلف مساجد فاس وشمال المغرب ، وفي المغرب عموما ، وآراء جد قيمة فيما يخص تطور هذا الفن في مختلف العصور . والجدير بالذكر ان للاستاذ هنري طيراس مشاركة هامة في تاريخ المغرب على وجه العموم ، وقد قام بمجهود كبير في الكشف عن كثير من المساجد ودراسة كثير غيرها من الوجهة الفنية وتطور الفن المعماري ، منشورة في مختلف المجلات والنشرات .

اما كتاب السيد ماسلاو ، فيحتوي على « وصف لتسعة وثلاثين معبدا وخاصة على مستندات مصورة واضحة ودقيقة عن ابنية يترتب تاريخها بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر » . وفي ذلك ما فيه من الجهد والفائدة .

ونقتطف الآن في ما يلي بعض الفقرات الهامة من مقدمة السيد هنري طيراس ، التي تلقي نظرات على الفن المعماري المغربي وعلاقته بالفن في اسبانيا المسلمة والمسيحية وبأوروبا .

* * *

يتحدث هنري طيراس بادىء ذي بدء عن نظرة الاوربيين الى المساجد المغربية ، الى عهد قريب فيقول : « كان من المسلم به تقريبا ، في السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي ، ان المساجد المغربية ليست بذات جمال كبير . لقد كنا (الفرنسيون) في ابتهاج باكتشاف المدارس ، فالى جانب هاته العجائب ذات الفخامة الرخوة والكمال المتناسق ، لم يكن لمساجد لا تعرف الا من جدرانها المتهدمة وأبهائها البيضاء ذات الاعمدة الثقيلة التي تلمح من انفراج احدى الابواب ، وصوامعها التي تكاد تخلو جميعا من الزخرف ، لم يكن لهذه المساجد ان تكون الا ابنية من الدرجة الثانية ، محكوم عليها ان تظل على الدوام فقيرة . لقد تنوسي ان الجوامع كثرة كثيرة الى جانب العدد القليل من المدارس ، وتنوسي ان الحكم على امكنة لاتولج مغامرة ــ وتنوسي ايضا ان الاسلام كان دائما ــ وهذا شرف له ــ يضع أحسن ما عنده من الفن في اعظم واشهر معابده .

وهذه الادانة القديمة الشاملة ، لم يعد النظر فيها بكاملها من جانب الجمهور الاكبر : لقد كانت هناك نظرية سياسية عجيبة في مبدئها وتطبيقاتها ، احتفظت الجوامع المغربية بغموضها وحالت بينها وبين اظهار جمالها لاعين الاروبيين » .

وبعد ان يتحدث عن تعرف الاروبيين اخيرا على هذه الجوامع بفضل الاصلاحات التي قاموا بها في البعض منها ، وان المساجد ، موضوع بحث السيد ماسلاو ، ترجع بتاريخها الى ما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر ، يخلص الى القول بأن هاته القرون الستة تنقسم ، فيما يخص الفن الاسباني المغربي في

شمال المغرب ، الى فترتين كبيرتين : فحتى القرن الخامس عشر عاش الفن الفاسي فى اتحاد وثيق مع فن اسبانيا المسلمة . وابتداء من القرن الخامس عشر انفصل عن اصله الاسباني : فالفرع المقتبس لن يعطي بعد ذلك الا ازهارا يزيد فقرها شيئا فشيئا ، وحيث يبقى مع ذلك ، فى الاغلب ، الانعكاس الشاحب للجمال القديم .

فالفن الاسباني المغربي اذن ، يتبع ــ ما دامت اسبانيا المسلمة ــ خطا الفن الاندلسي ويعكس تطوره، بيد ان المغرب فى بعض الاحيان ، يظل وحده محافظا على أعمال فنية ترجع لبعض العصور ، بينما لم يعد فى شبه الجزيرة الايبيرية اي شاهد عليها .... » .

ويتابع السيد طيراس متحدثا عن الفن فى فاس:

« لقد كان القرن الثاني عشر بالنسبة لفاس فترة نشطت فيها البناءات . فالمرابطون والموحدون الذين كانوا قد اتخذوا مراكش عاصمة لهم لم ينسوا المدينة الكبرى فى الشمال . فقد كان تكوين امبراطورية واسعة ، المغرب مركزا لها ، يفتح امام التجارة الفاسية آفاقا جديدة . فتحت حكم السلاطين الذين كانوا يسيطرون على هذا الجانب وذاك من المضيق (العدوتان) ، كانت فاس توجد ، اكثر مما كان عليه الحال فى عهد الامويين والعامريين ، على اتصال وثيق ومستمر بالاندلس . بيد ان الاثر الاساسي لهذه الحقبة : القرويين لازال يفلت منا . ففي اليوم الذي يصبح من المستطاع دراسة القرويين ونشرها (وثائق عنها) بكاملها ، فستفيدنا بالكثير ــ اكثر حتى من جامع تلمسان ــ عن فن المرابطين . وسنشاهد ان المعبد القديم ، الذي نراه من خلال ازقة مظلمة ، هو من أجمل الصروح فى افريقيا الشمالية . وان للقرويين ، بالنسبة الى فاس ، وفوق جمالها ، قيما اخرى متعددة . فهي منذ عدة قرون ، جامعة المغرب الوحيدة ، ومركز الحياة الاسلامية ومستقرها فى هذه البلاد . وهي كالمسجد الام فى المدينة : فجميع الصوامع فى فاس مبنية على شكل يمكن معه أن يرى من أعلاها ، صعود الشعلة التي تعطي الاشارة بـ (أوقات) الصلاة من اعلى برج القرويين القديم » .

ويتحدث السيد طيراس بعد ذلك بقليل عن فن القرن الثالث عشر ، فيقول :

« ان هذا الفن أنتج ، فى شمال المغرب ، امهات آثاره : فاسبانيا المسلمة كان قد اعيد احتلالها في الجزء الاكبر منها ، ومملكة غرناطة لم تزل منهمكة فى اعمالها التنظيمية والدفاعية . بينما ، فى المغرب ، كان فى امكان سلطاني بني مرين الاولين ، أبي يوسف يعقوب وابي يعقوب يوسف ، ان يقوما ببناءات فخمة واسعة. وهما يجدان لذة فى تجميل المدينة الجديدة التي جعلا منها عاصمة لهما : فاس الجديد ، وكذلك القلعة التي، بعد ان كانت استناد أجدادهما ، لم تزل تحرس حينئذ مملكتهم فى الشرق : تازة ..

وهناك مسجدان وصلا الينا بكاملهما ، ويخبراننا عما كان عليه الفن المريني الاول : المسجد الكبير في فاس الجديد ، الذي بناه ابو يوسف يعقوب فى السنوات التي اعقبت تأسيس المدينة (1276) ، والمسجد الكبير فى تازة ، الذي كبره واعاد بنائه ، اعتبارا من احد الابنية الموحدية ، ابو يوسف يعقوب . وان مسجد الحمراء فى فاس الجديد ، الذي يبدو لاحقا على المسجدين الاولين ، هو من نفس الصنف ، وينبغي ان يدرس معهما .

ومن الدراسات والصور التي صنعت لهذه البناءات ، تبرز نتيجة واضحة كل الوضوح : يوجد نموذج للمسجد الكبير من القرن الثالث عشر ، يختلف كثيرا عن المساجد الكبرى الموحدية ، ولكن المعابد التي على غراره من القرن الرابع عشر لن تكون الا تبسيطا عنه . فبينما شاهدت نهاية القرن الثاني عشر بروز مخططات للمساجد لم تعرف من قبل ، اصبح الفن الاسباني المغربي ، الذي ضاع بعض الوقت فى طريق التجديدات الجريئة ، يميل نحو الانحباس فى تقليد محدد جيد التحديد . وتعطي هذه الساطة

المنسجمة ، بعد جميع محاولات فن القرن الثاني عشر، تعطي رغم كل شيء شعورا بالجدة » .

ويعطي السيد طيراس توضيحا لهذا التغيير فيقول :

« بينما كانت المساجد الموحدية الاولى اكثر اتساعا منها عمقا ، فان هذه المساجد الراجعة الى نهاية القرن الثالث عشر ، هي بكل وضوح اكثر طولا منها عرضا . والذي زاد منها في الاتساع اكثر من غيره هو الصحن خاصة ، فهو يشغل ما يقرب من نصف البناء . وان لهذه الساحات الواسعة المفروشة بالزليج لجلالا حقيقيا . وتوسيع الصحن يرجع بدون شك الى اسباب عملية : فقد جرت العادة ان تقام الصلاة في فصل الصيف ، في صحن المسجد ، وقد خصص لذلك، في مدخل البهو المحوري ، محراب ثانوي ، هو ما يسمى بالعنزة » .

ويفصل السيد طيراس في امر هذه التغييرات الفنية التي ادخلت على الجوامع في عهد المرينيين ، اي بالنسبة لفن القرن الثاني عشر ، فن الموحدين والمرابطين .

ومما يقوله في ذلك :

« ان مقاصد فناني القرن الثالث عشر اصبح في الامكان قرائتها بكل وضوح في الرسوم الجميلة التي عرف السيد ماسلاو كيف يخلع عليها كل الصفاء المتانق الذي تتميز به الصروح المرينية . وعلو هاته المساجد علو جميل جدا ونموذجي للغاية . فاقواس الابهاء ذات ارتفاع مساو لارتفاع أعمدتها . وقد ترك نهائيا القوس المتجاوز (الذي يتجاوز عرض ما بين الاعمدة) والمنكسر ، الذي كان معمولا به في المساجد الموحدية : اي رجع الى القوس ذي الانحناء نصف الدائري المتجاوز ، وفي هذا ايضا ما يجعلنا نفكر في قرطبة .

« ولم يعد الفنانون المعماريون يبحثون عن القوة والانطلاق ، كما كان شأنهم في القرن الثاني عشر : فهم يجتهدون من اجل (الحصول على تانق اكثر هدوءا) . والاطار المستطيل للاقواس اقل ارتفاعا منه في القرن السابق ، بينما الجدران تظل ، بصفة محسوسة ، بالارتفاع ذاته . وكل هاته المعابد تمتاز بدقة نسبها وانسجام توزيع المبني مع الفراغ . ودراسة القبب تكشف عن ان المرينيين كانوا يستخدمون معماريين حقيقيين وان هؤلاء لم يتركوا اي شيء للصدفة . فالربط بين القبة امام المحراب ونصف قبة المحراب نفسه ، وهذا النصف اخفض من القبة الاولى ، يبين ان اساتذة القرن الثالث عشر كانوا يعرفون كيف يعالجون ، بقدر متساو من الصراحة والسهولة ، الترتيب الصعب بين الاحجام غير المتساوية » .

ومن موضوع الفن المعماري ينتقل الباحث الى موضوع الزخرفة . ومما يقوله بصدد ذلك :

« وتكشف زخرفة هذه المساجد اكثر من الفن المعماري ذاته ، عن نزعات جديدة . فالفن الموحدي كان قد أبعد ، في المعابد الافريقية الاولى للدولة ، الزخرف المقطي (أي الذي يكسوا الجدران والسقوف). وكان الفنانون الاندلسيون ، مراعاة منهم لتدين اسيادهم الجدد ، قد عرفوا كيف يخلقون زخرفا اكثر تخلخلا ، وكيف يصنعون آثارا رائعة بزخرفة واسعة. وفي عهد المرينيين نرجع بكل تاكيد الى الزخرف المغطي . فتحت القبتين الكبيرتين تنتشر زخرفة بالجبص المنحوت تنزل حتى خدود الاعمدة ولا تترك اي فراغ . والباقي من المصلى ، في الحق ، قليل الزخرف : فمساجد القرن الثالث عشر تتبع على هذا الشكل الزخارف الكثيفة الموزعة توزيعا منظما قويا ، بامكنة كبيرة فارغة » .

❋ ❋ ❋

ويعطينا هنري طيراس نظرة وافية عن الفن المعماري في القرن الخامس عشر والعلاقات الجديدة بين المغرب واسبانيا ، ويكتب قائلا :

« منذ بداية القرن الخامس عشر ، تضعف الاتصالات بين المغرب وما بقي من اسبانيا المسلمة . ففي الوقت الذي كادت تضطرب فيه الدولة المرينية وتنقسم ، كانت غرناطة النصرية ، امام خطر الغزو المسيحي الصاعد ، منهمكة في تحصين دفاعها . وبينما ادالت اخيرا عائلة من الوزراء هم الوطاسيون، المرينيين ، واستطاعت ، مع احتفاظها لفاس بنوع من الازدهار ، أن تسيطر على شمال المغرب ، من دون لمعان يذكر ، سلمت غرناطة ، المعزولة والمحاصرة ، للملوك المسيحيين . (وبهذا) سيموت الفن الاسباني

المغربي في اسبانيا . وليس معنى ذلك أن الملوك المسيحيين قد قضوا عليه ببغضهم له ، فرؤساء اسبانيا المسيحيون تذوقوا دائما سحر هذا الفن الاسباني المغربي الذي كان طيلة القرون الوسطى باكملها ، الفن الوطني لشبه الجزيرة الايبيرية . وفي جميع الاراضي المستعادة في القرن الثالث عشر مدد الفن العربي (تحت الحكم الاسباني) التقاليد الاساسية للبلاد ، بايد مسيحية في بعض الاحيان . لقد هلك الفن الاسباني المغربي تحت الضغط الظافر لفن النهضة . وقد استطاع في بعض الاحيان ، في وقت طغت فيه الاشكال الجديدة ، ان يحافظ على روحه ، ووسائله الفنية . لكن لم تفتأ اسبانيا ان عبرت ، في مجموعة من الاعمال الفنية الكلاسيكية بالمرة ، عن مثلها الاعلى الفني الخالد. ففي فن القرنين السابع عشر والثامن عشر (الخارج عن التقاليد الكلاسيكية : الفن الصاخب) ، نلفي نفس التأرجح بين النزعات وهو ما كان يكون الحياة العميقة للفن الاسلامي في اسبانيا . والفن الصاخب نفسه يستسلم دائما لاغراء الزخرف المفظي الغزير حيث يجد لذة في ترتيبه (ويمكن ان نقول ، في اعطائه الانسجام التام) ، بموهبة فنية واعية . ولكنه في بعض الاحيان يستلذ ببساطة اختيارية تعشق الاتقان . فروح اسبانيا التي برزت ، عن اختيار ، طوال قرون عديدة ، بثوب الفن الاسباني المغربي ، ستعبر من الآن فصاعدا عن نفسها بلغة الفنون اللاتينية .

« لكن الفن الاسباني المغربي الذي كان قد انهى مهمته في اسبانيا ، سيظل حيا بعد ذلك في المغرب . ان هاربين اسبانيين قد اتوا من دون شك يعززون اوراش فاس : وتلك هي الدفعة الاخيرة والمصطنعة للنسخ الحي . وسيلقى الفن بعد ذلك نفس المصير الذي صارت اليه الحضارة الاسبانية المغربية في المغرب باكملها ، هذه الحضارة التي سيكون عليها ان تعيش بين اسوار المدن والقصور ، في معزل عن اغلبية البلاد الكبرى التي ظلت تارة بربرية ، وتارة افقدها الغزو الهلالي شخصيتها . وفي اوراش فاس اخذت التقاليد الاسبانية المغربية تتلاشى شيئا فشيئا .

« ومع ذلك فقد عاش هذا الفن . فالمغرب كان قد انعزل عن العالم الخارجي . وهاهم الموسكوس وحدهم ــ هدية اسبانيا الاخيرة وغير الاختيارية ــ يحملون اليه بعض عناصر فن النهضة . ولن ياتي اي منافس ليبعد هذا الفن الوسيطي ، الذي يفرض نفسه على المغاربة بما له من دالة اكتسبها من امجاده السابقة وكاشارة الى حضارة ارقى . ولهذا فان اساتذة الفن والصناع المغاربة ، رغم اضطراب الطلب ، نجحوا في اطالة حياة فن كان كل حياتهم وفخارهم . فتاريخ المغرب المضطرب قد أعفى نسبيا مدينة فاس . وحتى حين فضل عليها السعديون مدينة مراكش ، وخلق لها المولى اسماعيل منافسة مكناس القريبة منها ، ظلت فاس المدينة بمعنى الكلمة وملجا ارقى التقاليد . ونفس الملوك الذين جردوها من الاولية السياسية ، التجؤوا غالبا الى اوراشها . ومع المولى اسماعيل ونهاية القرن الثامن عشر : استعادت فاس مكانتها كعاصمة اولى ، واقبل السلاطين بلذة على تجميلها ، دون ان يهملوا المدن الاخرى في البلاد . وفضلا عن بناءات المخزن، فأوراش الشغل لم تتوقف . وقد ظلت فاس ، بوصفها مدينة العلم والتقوى ، المدينة ذات المعابد التي لايحصيها عد : فكثير من المساجد الصغيرة بنيت أو أعيد بناؤها في القرون الاخيرة . ولم يبن في أي مكان آخر في المغرب بصفة مستمرة على الشكل الذي كان عليه البناء في فاس . والابنية الاقرب عهدا والتي نشرها السيد ماسلاو ، تسمح لنا اذن باعطاء حكم عام على الفن المعماري الاسباني المغربي في المغرب من القرن السادس عشر حتى أيامنا .

« ومن هاته الصروح ، يمكن أن نكون مجموعتين. قبل كل شيء هناك مجموعة من مساجد الحي الصغيرة : تلك التي لاتكاد تبدو للمار الا من بروز محراب او من قوس باب . واغنى هاته المساجد تعلوها صومعة من الآجر بدون زخرف . وبعض المصليات تختفي وراء بعض المنازل ولا تتصل بالشارع الا بواسطة زقاق طويل مظلم . وهاته المعابد المتواضعة لها مع ذلك بهاؤها الخاص .

فحين نقارنها بالمعابد المرينية الصغيرة ، نلمس المدى البعيد لانحطاط لا محيص عنه . ليس هناك ذرة من التجديد : فالمخطط المعماري يبقى هو هو . نفس الملحقات دائما : قاعة النظافة ، سقاية ، مسكن المؤذن، مسجد الاموات ، وكلها متجمعة حول صحن ضيق او خلف مصلى تنتظمه صفوف . ولا تبقى للبهو المحوري اسبقية ظاهرة . والاشكال التفصيلية تخشن دون ان تتجدد . وتبرز المخططات والمقاطع ضعف حياة هذا الفن المعماري المنحط . وغالبا ما كان ينبغي اقامة البناء على ارض ملتصقة وغير مستوية ، لكن بينما كان المعماريون المرينيون يعرفون كيف يتخلصون بمهارة من هذه الصعوبات وينظمون مخططهم بكل ما يمكن من المنطق والتناسب ، نحس بالنسبة لهذه المساجد ، ان

بعض تعديلات ، بدون دقة ، قد اجريت في المكان . ان هؤلاء الصناع ، الذين كانت ارادتهم الطيبة وخيالهم اكثر من علمهم ، لم يحاولوا ان يحلوا بلباقة مشاكل عقمها اكثر من صعوبتها . وحتى الصوامع لم يعد لها ؛ لا في مظهرها ، ولا في هندستها خاصة ، القوة المتوازنة للبروج المرينية » .

« على اننا نصادف احيانا بين هؤلاء البناة المتوسطي القيمة ، رجلا له مزاج معماري ويظهر قادرا على اعداد مخطط . لكن هذا الفنان الاستثنائي يخرج دائما تقريبا عن التقليد . فمسجد العباسيين ، ببهوه الوحيد الذي يحده صفان من الاقواس ، ومسجد مدين الصغير بأبهائه الثلاثة وبهوه الرئيسي الوحيد ، الذي يذكر بكندرائية مصغرة ، رغم عدم اتفاقهما بالكبر ، يمتازان بالوضوح . وزاوية السي التادلي بن سودة ، بأبهائها السبعة الرئيسية التي يتقلص عرضها ابتداء من البهو المركزي ، هو اعجب مثال من بين هذه المحاولات النادرة في الحصول على الاصالة والمهارة خارج التقاليد الملقنة .

« والى جانب هذه المساجد الصغيرة ، يعطينا السيد ماسلاو نظرة عن بعض المعابد الكبرى التي بنيت على نفقة بعض السلاطين العلويين . وبنايات المخزن هذه ذات اعتبار اشد . ومسجدا مولاي عبد الله وباب الكيسة الفاسيان – اللذان لهما مخطط منتظم مبتذل نموذجان جيدان للمساجد العلوية . فالسقوف تتطاول بتطاول الابهاء ، والقبب تختفي ، ولا تبقى للبهو المحوري اولوية نظرا لعرضه الزائد . وهذه المصليات (امكنة الصلاة المسقفة) . حيث لايبقى للابهاء تدرج في القيمة ، يعوزها العمق : فالصحن يتسع على حساب قاعة الصلاة ولكن يبقى محاطا بابهاء مسقفة . ان هذه المخططات الصحيحة وغير المعبرة علامة على فقدان هذا الفن لحيويته . وتنتظم قرب هذين المسجدين وحولهما، بكثير من التبعثر ، بل حتى من قلة المهارة ، وقليل من المنطق ، ملحقات مختلفة : مدرسة في باب الكيسة ، ومقبرة اميرية في مولاي عبد الله . على ان الصوامع ، التي تحتفظ تقريبا بالتقليد المريني ، تظل ذات مظهر محترم . غير ان واجهاتها الخالية تقريبا من الزخرف تترك شعورا بالافتقار .

« ومسجدا مكناس اللذان تحويهما هذه المجموعة، اكثر لطافة : ويبدو ان معابد المولى اسماعيل وخلفائه المباشرين احسن من قصورهم . وليس من قيمة لمسجد الروا الذي بناه السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، والذي يحوي اربعة ابهاء وثلاث عشرة قبة كلها متماثلة ، الا باتساعه ، لكن الصحن ، وهو مربع كبير طول ضلعه اكثر من خمسين مترا ، ومزين كله بمربعات مصوغة خضراء ، ذو عظمة حقيقية . فالمهندس المعماري قد جدد ، بحذفه الابهاء الجانبية وجعله هذا البساط الواسع من الزليج ذي اللون الواحد محدودا بثلاثة جدران عالية تخترقها ابواب ثلاثة . والمدرسة التي تحاذي المسجد في الشمال الشرقي والتي تحاول ان تنتظم حسب مثلث جد متطاول ، ليست في مستوى المسجد . على انها تنجح ، بغرابة شكلها ، في البقاء خلابة المنظر في عدم توازنها . ومسجد التوتة ، رغم ردائة مخططه ، يجمع في مظهر خلاب ، بين قبة بالآجر الاخضر ، والاسطح المتطاولة لابهائه ، وصومعة ذات نسب جميلة . ان صوامع مكناس هذه المبنية بالآجر، بعناية ومتانة ، والمجملة تجميلا مختصرا بالاعمدة ، رغم قلة غناها ، ذات جمال شريف وبسيط .

* * *

« وهكذا ففي فاس نفسها ، وهي افضل ملجا للفن الاسباني المغربي ، لم يستطع هنا الفن ان يستمر الا كما تستمر حياة فن مهاجر ، اي حياة نصف مصطنعة وذات انحطاط بطيء . ولم تستطع المدن المغربية ان تستقبل غير آخر مظاهر الحضارة الاسلامية في اسبانيا من دون ان تستطيع امتلاك فكرها الخلاق . واخلاص هذه المدن للتقليد الاندلسي ، رغم عاطفته ، قد ظل بدون قوة ولا امل . فالمدن التي استمر فيها هذا الفن المستورد كانت جد مختلفة عن البلاد الصعبة والجميلة التي كانت تحيط بها : فلم يستطع الفن الاسباني المغربي ان ينمي في وسط ارض البربر الجذور العميقة التي وحدها كان بامكانها ان تيسر له التجديد والخصب . ولهذا فان جميع مساجد فاس وشمال المغرب هذه تحمل الينا ، في نهاية التحليل: قبل نهاية القرن الخامس عشر ، شهادات عن اسبانيا ، وابتداء من القرن السادس عشر ، انعكاسات عن الاندلس .

ترجمة : الاستاذ عبد اللطيف ملين

*) نشر — Les Editions d'Art et d'Histoire Paris - 1934

المساجد وأثرها
في إصلاح العقول وتطهير النفوس

للأستاذ: عبد الله الجراري

كان المسلمون فجر عهودهم الاولى وايام فتوحاتهم المبكرة يؤدون صلواتهم بامكنة يتخذونها فى احيائهم من خيام واخصاص وما اليها يقيمون بها ما وجب عليهم من صلوات فى اليوم والليلة، وكان سكان الاحياء والقبائل لذلكم العهد الاسلامي الفتي ينفقون على هذه المساجد البسيطة من حر اموالهم ابتغاء مرضاة الله، وسعيا وراء ثوابه الذي يامله كل مؤمن.

وبعد ان اخذت طاقة الاسلام تقوى وتعم البقاع — فكر الملوك والامراء فى تاسيس المدن وتهيىء ما يلزم ان تتوفر عليه من مصالح ومرافق وكان فى المقدمة المساجد والمعابد.

والمولى ادريس الفاتح الاكبر للمغرب — اول من انبرى للقيام بهذه المكرمة المقدسة — فبعد ما استقر به الاسلام فى هذه الديار — توجه فاتحا تلمسان الشقيقة وغزا من بها من قبائل مغراوة وبني يفرن وفور وصوله اليها استقبله اميرها محمد بن خزر بن صولات المغراوي وطلب منه الامان فآمنه ودخل اليها الخليفة ادريس الاول صلحا وامن اهلها — وبنى مسجدها واتقنه وصنع له منبرا وكتب عليه: « بسم الله الرحمن الرحيم — هذا ما امر به ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن ابي طالب رضي الله عنهم وذلك فى شهر صفر عام 174.

هذه تلمسان التي عدها المؤرخون باب افريقية أو المغرب.

(تلمسان لو ان الزمان بها يسخو
منى النفس لادار السلام ولا الكرخ)

كما يقول محمد بن خميس فى قصيدته الخائية متشوقا الى تلمسان بلده.

فها نحن نرى اعظم مسجد(كذا!)من مساجد الاسلام يؤسسه الفاتح الاول بهذا البلد العزيز وعندما التحق بربه برد الله ثراه وخلفه ابنه ادريس الثاني الانور وتكاثرت الوفود عليه بوليلي — ازاء مدينة زرهون — فكر قدس الله روحه فى جمع من علية القوم فى بناء مدينة تسع وفوده ورجال رعيته وفعلا اثمرت الفكرة وكانت النتيجة تاسيس فاس الفيحاء، وفى مقدمة المشروع تكوين اول مسجد بها هو — جامع الشرفاء الذي على غرار قبلته وضعت قبلة جامع القرويين عند تاسيسه، ونقلت الخطبة منه الى الجامع الجديد — ولم يعرف اول رجل ام بالناس فيه اذ لم تكن امامة المساجد لذلكم العهد الفتي وظيفة دينية رسمية يتقاضى المشتغل بها اجرة كامام راتب بل كان يؤم المسلمين وقتئذ كل من توفر على سمت حسن، ودين متين، ومعرفة بتلاوة القرءان الكريم. وطبعا يطمئن المؤمنون وتطيب نفوسهم للصلاة وراء رجل تكاملت فيه هذه الصفات الحميدة التي تنشدها شريعة الاسلام وتدعو اليها مبادؤه.

وبالتالي فقد لعبت المساجد من اول تاسيسها شرقا وغربا دورا هاما فى شتى النواحي دينيا واجتماعيا وسياسيا اذ كانت تعقد فيها الحلقات العلمية والثقافية فكان الرسول عليه السلام يرشد اصحابه ويعلمهم ما هم فى امس الحاجة لمعرفته، كما كانت تقع فيها المفاوضات والمخابرات لدعم الدعوة الاسلامية وتركيز تعاليمها فى النفوس، وفيها كانت تعقد الوية السرايا حيث لم تكن اسست مراكز لهذا الغرض الحربي الهام

بعد ، فكان المسجد والمسجد وحده المرجع الوحيد لسد هذه الحاجات الضرورية لكل الطاقات ماديا وروحيا ، فهذا الاب الاول آدم عليه السلام يؤسس من تلقاء ربه تعالى بتأسيس بيت بوادي مكة التماسا للرحمة والمغفرة ، كما ان الرسول محمدا عليه السلام بنى مسجده الذي انفرد بالدور القيادي على المساجد جميعها — فكان مركز الخلافة في اهم عصر من عصور الاسلام ايام ابي بكر وعمر وعثمان ، وهو طبعا ثالث المساجد التي اليها تشد الرحال بل كان المكان المختار لمجلس عمر بن الخطاب في قضائه وتدبيره شؤون الدولة ومنه خرجت فتاويه للناس في وقت كان فيه مجلس شواره الخاص مع عثمان بن عفان ، وعلي بن ابي طالب وعبد الرحمن ، بن عوف ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهم من فقهاء الصحابة وذوي الراي والرشاد فيهم .

فهؤلاء وغيرهم كثير ممن تكفلت بذكرهم كتب السنة والفقه كانوا طلابا واساتذة في ءان واحد في جامعة الاسلام الاولى التي مقرها المسجد النبوي في المدينة المنورة خلال القرنين الاول والثاني من هجرة الرسول الاعظم محمد صلوات الله عليه .

وهكذا كان الحال في الحرم المكي حيث كان كبار الصحابة يجلسون لاداء رسالة التهذيب والتثقيف كمعاذ بن جبل ، وعبد الله بن عباس ، وغدا المسجد امتدادا لهذه الحلقات الروحية يلعب دوره الخطير في رفع لواء الاسلام خفاقا في عواصم الاسلام ومدنه كالبصرة والكوفة والشام بعد فتحه والسودان وجامع الزيتونة في تونس بعد جامع القيروان ، والاندلس التي منذ فتحها العرب وهم ينشئون المساجد ويتوسعون في اقامتها لدرجة ان مدينة « قرطبة » وحدها كان بها سبعمائة مسجد وهذا وحده يبرهن في وضوح على مدى عناية الاسلام والمسلمين بالمسجد وتأسيسه لما وقع في صدورهم — ان المسجد كان مركز اشعاع للثقافة في كل الاصقاع الاسلامية المترامية الاطراف — نعم اهتدى بعض الخلفاء لاول عهود الاسلام المشرقة لتاسيس المدارس والمعاهد فكان هشام بن عبد الملك اول مؤسس مدرسة في الاسلام بالشرق تكفلت بضم طلاب المعرفة على اختلاف الوانها كما كان الاستاذ وجاج بن زلو اللمطي الافريقي اول مؤسس مدرسة بالمغرب الاقصى شعت انوارها على المغرب العربي بواسطة احد خريجيها — الزعيم الشهيد — عبد الله بن ياسين .

فكان هذا فتحا جديدا دعم المسجد وساعده شيء قوي حركة التأسيس المدرسي وحفز الملوك والشيوخ بوجه اخص لفتح الزوايا والمدارس ازاء المساجد خدمة للمعرفة والثقافة وسعيا وراء تكوين اجيال صالحة تضطلع بمسؤوليات الحياة في شتى الوانها — واستمرت الحال هذه عبر العصور والاجيال بل اتسعت ايام الدولة المرينية بالمغرب حيث علا مؤسساتها الفن والزخرفة ويكفي شاهدا على ذلك ان يرى المعاصر مدارس فاس — وسلا ، ومراكش ، وغيرها وعلى هذا المثال سار السعديون في القرن العاشر واوائل الحادي عشر الهجريين ، غير ان طابع الفن ورقته تجليا بصفة خاصة في مقبرتهم بقصبة مراكش قرب جامع المنصور الشيء الذي اضطر معه الكاتبان الفرنسيان — الاخوان جروم وجان طارو ان يقولا : ان من لم يشاهد في حياته مقبرة الملوك السعديين في مراكش لم يدرك الى اية درجة من الارتقاء بلغت المدنية الاسلامية .

واتصلت حلقات التاسيس وبناء المساجد في دولتنا العلوية الشريفة بأغزر واروع مما عرفته الدول قبل انشاء وتجديدا حيث اندفع جمهور من ابناء المغرب لوقف وتحبيس الاراضي والرباع على تأسيس المساجد وصيانتها (والناس على دين ملوكهم) بل امتازوا عن سواهم بحضور دروس العلم بانفسهم فهذا المولى الرشيد العلوي يحضر حلقات الدراسة بجامع القرويين ويحض كلا من الاساتذة والطلبة على بث العلم وتلقيه بروح ملؤها الصدق والاخلاص ، كما نرى اخاه المولى اسماعيل يحبس عدة كتب علمية قيمة على خزانة القرويين ، وتلك سنة المنصور السعدي (الذهبي) قبله .

كما ان عالم الدولة العلوية المولى سليمان قدس الله روحه كان هو بدوره من آونة لاخرى يزور جامع القرويين متـرددا على مجالـس دروس الصـدور من الشيـوخ ، ولا ننسى ان المولى عبد الرحمن بن هشـام كان له اعتناء خاص بالعلم وذويه واهتمام كبير بتنظيم التعليم وترتيب الدروس بل يعد ثاني مؤسس لنظـام التدريس بالقرويين جملة ، وهكذا الى ان اخذ الجامع القروي وفروعه الحظ المرموق في عالم المعرفة والثقافة ترتيبا وتنظيما ايام الملك المقدس محمد الخامس طيب الله ثراه . وكل هذا يدخل في غمار العناية بالمساجـد والعمل على تادية رسالتها في جو يسـوده التكريـم والوقار ، وها هي وزارة الشؤون الاسلامية ـ لعهـد الملك الشاب الحسن الثاني ايده الله تعد بتاسيس عدة مساجد في مدن المغرب وقراه وبناء نماذج مثالية منها في جل المدن وتنظيم دراسة علمية وارشادية بها بواسطة علماء اكفاء يخصصون لهذه الغاية النبيلة مضافا اليهم وظيفتا الامامة والخطابة ، الخطابة التي اصبح يتولاها اليوم في المجموع من هم في امس الحاجة الى مثاقفـة الكتاب والعود اليه قصد المرور في مراحله ثاني مـرة ، حيث لم يستفيدوا من تجاربه الاولى ما يقيم السنتهم ويضعهم في صفوف الذين لازموا المساجد وتكونـوا في احضان ابهائها امام مشايخ العلم ورجال الثقافـة على اختلاف معارفهم وافانين سلوكهم في التثقيف والتربية.

والامل وطيد في الوزارة المعنية ان تعجل بالمشروع الذي غدا حديث الاندية العلمية وسواها في ترقـب لانجاز هذا الوعد الذي له اثـره في اصـلاح العقـول وتطهير النفوس .

الرباط ـ عبد الله الجراري



الأندلس كانت مسلمة

للأستاذ : رابح منصر

... غرناطـــة ... :

الحديث عن الاسلام فى الاندلس ، هو حديث ، عن حضارة ، عن عقيدة ، عن فكرة انسانية ، عن تجربة عمرت زمنا لم شاءت الظروف والاحداث ان يوضع لها حد ، لقد كان الاسلام فى الاندلس ، فى بداية الزحف الاسلامي الاول وخلال قرون تلته ، يمتد زحفا انسانيا استهدف اول ما استهدف الانسان الفال ، ليفسح له مجال النظر والتفكير والتأمل ، فى علاقة الانسان باخيه الانسان وعلاقة الانسان من حيث هو كائن ، من حيث هو مخلوق ، بخالقه ، وفى نطاق عقائدية الاسلام والفكرة الحتمية التي يدفع بها الانسان لان يعرف نفسه وبالتالي ليعرف مصير حياته الآجلة ، وما يفضى اليه فى حياته الاخرى الآجلة ، فى هذا النطاق سنحاول استعادة ذكريات اسلامية فى الاندلس الاسلامية ، كان الاسلام هو الدافع الاول للزحف نحو اسبانيا لنشر لواء العقيدة الاسلامية خدمة للانسانية فى هذه المنطقة ، وتم الامر كما جاءت الرغبة الاسلامية الصادقة الواعية المصممة ، ولكن الامر اختلف غاية الاختلاف حين فقد الاسلام محتواه العقائدي فى نفوس المسلمين بالاندلس قبل النكبة ، وحين استحالوا الى مسلمين (جغرافيين) يعني مسلمين حين يتحدث عن هذه المنطقة فى مجال الحديث عن تخطيط الاقاليم والبلدان ، اما الاسلام كروح ، كفكرة ، كعقيدة ، كمبدا، كرسالة انسانية خالدة ، فقد خوت منه قلوب ، وعقول الاندلسيين وخاصة الحاكمين وهكذا كانت النهاية الحتمية آتية لا ريب فيها منذ اليوم الاول الذي فقد فيه الاسلام نفوذه على النفوس ، والعقول ، والقلوب جميعا ، وكان التاريخ ، تاريخ الانسانية ، قد سجل بسقوط الاندلس اكبر نكبة عرفتها الانسانية ، فاذا كان المسلمون قد جاءوا غزاة فان الاسلام جاء على العكس منذ ذلك منقذا للجماعات البشرية المستضعفة فى الارض ، فكان الاسلام بالنسبة اليها منقذا فى الحياة الدنيا ، وممهدا السبيل لحياة اخرى اسعد واهنا ، والذي يزور الاندلس اليوم ويخالط اهلها ويعيش معهم وقتا ما ، فيجد الاسلام فى الاندلس لم يختف كلية ، فهو وان ترك المكان للمسيحية فقد ظل نفوذه سائدا فى شكل آخر ، شكل عادات ، شكل نظرة للحياة، اقصد ان الاسلام كعقيدة قد اختفى ولكن الاسلام كحضارة فلا تزال بعض آثاره قائمة فى اهم المدن الاندلسية وخاصة غرناطة ، واشبيلية ، وقادس ، فالناس هنا لا تزال عاداتهم اسلامية وان هم الآن يحيون حياة دينية صارمة شديدة تصل احيانا الى درجة التعصب الاعمى ، حياة دينية ترعاها الكنيسة الكاثوليكية ، وتحاول منذ زمان ان تقضي على كل مظهر اسلامي فى الاندلس ، حتى بعض المآثر التاريخية لم تسلم من اذى رجال الكنيسة ، حتى ليخيل للمرء ان شبح الاسلام لا يزال يخيم على الاندلس وان رجال الكنيسة يخافون هذا الشبح ويرعبهم اينما وجدوا فى الاندلس ، حتى انهم اندفعوا فى تشويه الاسلام الى تلقين الجماعات المسيحية فى الاندلس معلومات تصور المسلمين الذين ظلوا فى الاندلس ثمانية قرون صورة الجماعة التي جاءت وليست لها من رسالة سوى القتل وسفك الدماء ، واستباحة اموال غير المسلمين وحرمانهم ، واصبح اليوم فى الاندلس – على ما لاحظت – كل مسيحي وخاصة الطبقة المتوسطة الثقافة ترى فى المسلم اليوم رجلا يحمل تحت معطفه سكينا او خنجرا وانه مستعد لاستعماله ضد اي كائن آخر غير مسلم كلما وجد لذلك فرصة ، وقد اسرفت الكنيسة فى تهويل هذا الامر ايما اسراف ، وكان لها فى

ذلك هدفان : هدف اول هو النيل من الاسلام ، وهدف ثاني هو تغذية روح التعصب في نفوس المسيحيين ، وهذا ما يجعل اسبانيا اليوم اكثر البلدان المسيحية تعصبا يكاد يصل الى درجة الحمق والعتوة .

والغريب ان الناس هنا في الاندلس رغم حملة الكنيسة ضد الاسلام خلال عدة قرون ظل الكثير منهم يحمل ذكريات طيبة نحو الاسلام والمسلمين ، وان كانوا لايظهرون هذه العواطف الا عند ما يتأكدون من طيبة طوية من يشاطرونه الحديث ، ولعل الآثار الخالدة للحضارة الاسلامية الباقية حتى الآن في الاندلس توحي لاندلسيي اليوم عظمة الدور الذي قام به المسلمون في هذه الديار ، ولا يستطيع حتى المتعصب منهم المرن في عصبيته ان يخفي اعجابه بقصر الحمراء ، او مسجد اشبيليا الذي حول الى كنيسة ، فالاندلسيون الاسبان اليوم لاينكرون اطلاقا ان الاسلام في الاندلس حين غزا القلوب في هذه الديار مدة ثمانية من القرون انما كان بجانب كونه فكرة ربانية تحمل للانسان حيث وجد مشعل الهدى والتوجيه فان هذا المشعل الروحي ، قد رافقه مشعل آخر ينير الطريق نحو اقامة حضارة مادية تقوم على اساس من العلم ، والبحث العلمي بوسائل وطرق منهجية ، اثارت اعجاب الباحثين المنصفين من رجال علم التاريخ وعلم الاجتماع، ولعل نظام الري الذي اقامه المسلمون في اشبيلية وغرناطة آية ناطقة على مدى التقدم في ميدان العلوم ذات الطابع المادي ، بجانب العلوم الانسانية كالآداب والفلسفة ، وعلم الطب، وغير خاف ان اوربا في نهضتها الحديثة مدينة بشيء غير يسير الى العلماء المسلمين الاندلسيين ، ويذكر التاريخ ان كثيرا من مؤلفات علماء اندلسيين قد نقلت الى اللغة اللاتينية ، لغة العلم في القرون الوسطى ، وكانت هذه المؤلفات المترجمة عن العربية في الاساس الذي اعتمدته الدراسة في المعاهد العلمية في اوربا .

والفرد الاسباني الواعي لايجهل هذه الحقيقة ، ولكنهم لايجهرون بها دوما لاسباب نفسية لها جذور عميقة في النفسية الاسبانية ، واهم هذه الاسباب ان الاسبان لايزال البعض منهم يتوجس خيفة من اي زحف اسلامي جديد ، ولكن هذه الخشية الباطنة الخفية مصدرها التأثر بعظمة دور الاسلام ، وقدرة المسلمين على الخلق والابداع وعلى تأكيد وجودهم في ميدان الخلق الحضاري بجانب الوجود الانساني الذي يتمثل في القابلية على المقاومة والبقاء حتى النهاية ، والفرد الاسباني في هذا الميدان سجين التاريخ والماضي فيما يتعلق بفكرته عن العرب والمسلمين ، بحيث ظل متأثرا بعظمة العرب والمسلمين وبخطورة الدور الذي قاموا به في الاندلس ، ومع ذلك لاينظرون الى حاضر العرب والمسلمين والى مدى حالة الضعف التي يوجدون فيها ، ومدى التخلف الروحي الذي يعانونه ، فالاسباني في الاندلس لايزال دائما يحمل في ذهنه فكرة تعني ابدا ان العربي يحمل دائما رسالة ، وانه مدفوع دائما بقوة ايمانه بهذه الرسالة الى فرضها على الغير ، واللجوء الى السيف هو ايسر سبيل الى ذلك ، فالعربي من اجل نشر الاسلام لايفتأ شاهرا سيفه في وجه كل معارض لقبول فكرة الاسلام ، وان قرون التخلف والجمود الفكري التي عاناها العالم الاسلامي والعربي على التخصيص كانت العامل الحاسم في وقف الزحف العربي الاسلامي ، وانه لا يستبعد عند ما يصحا المارد الاسلامي من غفوته في ان يحاول من جديد مد وجوده يمينا وشمالا ، وحين تحاول اقناع الفرد الاسباني بان زمن الفتح قد ولى وانه لم يعد هناك من مجال لفرض عقيدة ما بالقوة حين تحاول اقناع الفرد الاسباني بهذه الحقيقة يجيبك جادا : بان الاسلام قد اقام وجوده على السيف ، وان السيف سبب وجوده وانتشاره والاسلام فوق ذلك لايقنع بالانكماش حيث هو ، ان من طبيعته الامتداد والانتشار ، ان الاسلام على حد تعبير محدثي الاسباني كالسرطان فحتميته التوسع والانتشار .

وحين حاولت اقناع محدثي الاسباني بان ملايين من الرجال والنساء اعتنقوا الاسلام في آسيا دون ان يكون للسيف وجود ، ودون ضغط او اكراه ، كان جوابه وجود فراغ عقائدي لدى الجماعات الاسيوية التي التجات الى الاسلام لسد فراغ روحي .

والحق ان التحدي الاسلامي للنصرانية في الاندلس خلال ثمانية قرون قد احدث آثارا بعيدة المدى في حياة الفرد المسيحي ، وقد تمثل التحدي الاسلامي في الاندلس في عدة مظاهر كلها كانت صورة لعناصر انسانية ومادية لها طابع التفوق والاستعلاء على العناصر النصرانية في ذلك العصر ، فقد دخل الاسلام الى الاندلس كعقيدة روحية ، وقد حمل معه حضارة ومدنية لم تكن النصرانية بعد قد استطاعت ان تحقق مثلها ، وقوة الاسلام هذه في الاندلس في عصره الزاهر كانت قد اشعرت الفرد الاسباني المسيحي بنوع من الضآلة الشخصية سواء في مجال التقييم الروحي لسلوك الفرد ، او مجال التقدم العلمي فالاسلام ببساطته وتفسيره لظواهر الحياة الدنيا قد

استطاع ان يثير اهتمام الرجل العادي الذ لا يتوفر على اية ثقافة فكرية تساعده على التفكير الحر المتعقد ، والنصرانية نظرا للصفة التجريدية لقيمها الاخلاقية العقائدية ، فكانت بطبيعة الحال بعيدة كل البعد عن متناول فهم الرجل العادي عكس الامر بالنسبة للاسلام فهو لا يحاول ان يفلسف الكون وخالق الكون ، ولا ان يفلسف علاقة الفرد بخالقه ، فقد عرض الاسلام الاشياء عرضا بسيطا واضحا لا يحتاج فى فهمها الى الاستعانة بمنطق ارسطو وفلسفة افلاطون .

وهكذا فبساطة الاسلام وغموض النصرانية ، واحتكاك رجال الدين الاسبان بالاسلام والثقافة العربية فى الاندلس قد مكنتهم من معرفة شيء غير يسير عن الفكر الاسلامي والقيم الاسلامية على وجه التخصيص ، وكانت هذه المعرفة قد كشفت لهم عن سر انتشار الاسلام فى كثير من مناطق العالم دون تبشير ولا جهود ترعاها الدولة ، وهذا الامر هو الذي حمل الخشية الى رجال الدين الكاثوليك ، وقد كان رد الفعل لديهم وقائيا فى اعتقادهم ، اي الخشية من ان تتصل الجماهير النصرانية فى الاندلس وغير الاندلس بالاسلام مباشرة عن طريق الثقافة العربية التي كانت قد انتشرت فى الاوساط المسيحية فى الاندلس بشكل اثار قلق رجال الكنيسة ، وقد اوردت بعض كتب التاريخ ان تيسا قد اظهر جزعه البالغ من انصراف الشبيبة المسيحة عن تعلم اللغة اللاتينية الى العربية وان هذا المرض يجب ان يعالج والا حلت الكارثة بما تبقى من فكر وعقيدة نصرانية فى هذه البلاد .

وكان من جراء ذلك ان اسرفت الكنيسة فى تشويه الاسلام ، واسرفت فى الصاق ابشع الاوصاف والنعوت بالعرب المسلمين فى الاندلس حتى لقد بلغ التشويه درجة لا يكاد يصدقها العقل ، وفى المراكز الاسلامية السابقة فى الاندلس كقرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية يوجد اليوم عدد رجال الدين ما يساوي نسبة عشرين فى المائة من السكان او اكثر .

حقا ان كثرة رجال الدين فى اسبانيا امر ملحوظ من طرف جميع الناس ، ولكن كثرة هؤلاء فى الاندلس تمثل نسبة اعلى بكثير من اي منطقة اسبانية اخرى ، وعدد الكنائس هو الآخر اليوم فى الاندلس له مغزاه التاريخي ، فكل زنقة تقريبا فى المدن الاسلامية السابقة يكاد المرء يلحظ وجود كنيسة ورنين النواقيس امرا مدهشا حقا فيكاد جل الوقت عامرا باصوات النواقيس التي تتجاوب فى كل ناحية وهذه الظاهرة قائمة فى الاندلس دون سواها من المدن الاسبانية ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على ان التحدي للوجود الاسلامي الذي زال ، لا يزال هذا التحدي قائما فى الاندلس ، وان الكنيسة لا تزال ترعاه فى اشكال مختلفة .

والواقع ان غزو الاندلس امر عسير للغاية لكونها محصنة بسلسلة من الجبال المتماسكة الامر الذي يجعل تقدم اي غاز او فاتح يواجه مهمة شاقة عسيرة ، لن يستطيع تذليلها الا بعد عناء لا يوصف ، ومن غير شك فان فتح المسلمين للاندلس كان عملا رائعا يدل على مدى الطاقة الروحية والمادية التي كانت سهلت عليهم امر الفتح والغزو ، وفى نفس الوقت فان المسلمين الذين ضيعوا الاندلس كانوا من غير شك قد بلغوا درجة من الانحطاط الروحي والمعنوي ، والمادي، لا تكاد توصف ، وانهم كانوا قد فقدوا تماما كل مناعة للمقاومة ، ان بذل ايسر الجهد كاف لان يحول دون سقوط الاندلس ، ان طبيعة الاندلس محصنة بصورة تجعلها قلعة تقي نفسها اي عدوان خارجي .

ان الافلاس الروحي لمسلمي الاندلس كان من غير ريب هو العامل الاول الذي مهد السبيل للاسبان لان يجتاحوا الاندلس دون جهد او عناء ودون ان يواجهوا مقاومة ، لقد اسرف الاندلسيون على انفسم فى اللهو والعبث فكان الجزاء هو الذي سجله التاريخ ، كان الجزاء لعنة الاجيال .

غرناطة : رابح منصر

معرض الكتب

قصة الإيمان بين الفلسفة والقرآن

للشيخ : نادم الجسر
قرأه وعلق عليه : الاستاذ : محمد الطنجي

هذا العدد من « دعوة الحق » خاص بالمساجد وانما يعمر المساجد المومنون فناسب ان تكون قصة الايمان ضمن موضوعات الكلام على المساجد

والكتاب الذي نعرضه اليوم هو « قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » ترجمه عن اللغة التركية سماحة مفتي طرابلس ولبنان الشمالي العلامة المطلع الشيخ نديم الجسر سليل العلم والادب ، واخرجه في طبع انيق على ورق صقيل تبلغ صفحاته حوالي 450 من القطع المتوسط وهو ضمن عرضه لآراء عظماء الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين في المباحث الاولية والروحية يبرز تلك الابحاث في شكل قصة واقعية باسلوب رائع مشوق جذاب فتبسط الآراء كسلسلة من التطورات الفكرية الفلسفية اخذ بعضها برقاب بعض ، فيها اقرار للافكار الصائبة وتمحيص للآراء الغامضة حتى تنجلي اتجاهاتها ونقد للآراء المتهورة .

والكتاب في جملته من امالي رجل مفكر عظيم ، جمع بين مدارسة الفلسفة والعلوم والدين ، فجاءت اماليه آخذة من انواع دراسته ورصيد معلوماته باوفر نصيب ؛ فقد املى العالم الفيلسوف ابو النور « الموزون » السمرقندي معلوماته القيمة على تلميذه الوفي الشيخ حيران بن الاضعف البنجابي الذي هاجر اليه من جامعة بشاور بالهند بعد ان اعتراه شك كبير في العالم ما هو ؟ ومتى خلق ؟ ومم خلق ؟ ومن الذي خلقه ؟ وكيف خلقه ؟ ...

وكاد يعدي طلاب الجامعة بشكوكه فطرد في النهاية من الجامعة خشية تفشي دائه بين الطلاب ، فكانت امالي الشيخ الموزون اعظم وسيلة لاشباع نهمه في البحث العلمي ، حتى عاد اليه الاطمئنان النفسي والايمان واليقين .

والواقع ان هذا الكتاب نقد وتوجيه للفلسفة الروحية في مختلف مراحلها واستخلاص لنتائج عظيمة الاهمية تدعم الايمان بالله بالكشف عن باهر قدرته وحكمته من عظيم آثاره .

و « قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » تبتدئ بعرض آراء لفلاسفة اليونان القدماء حتى تنتهي بمدرسة ارسطو واتباعه ثم تعرض لفلاسفة الاسلام بالمشرق في عهود العباسيين وما والاها وبالاندلس والمغرب في عهود الامويين والمرابطين والموحدين ومن نشأ في احضان جميع هذه الحضارات الاسلامية من نبغاء الفكر ، ثم يأتي عرض آراء فلاسفة اوربا بوجه عام حتى عصرنا هذا فيعرض الآراء وينقدها ويوجهها ويوفق بين ما يبدو منها مختلفا مع غيره في بادئ الرأي حيث يوضح ما فيها من غموض ولبس ، حتى تنجلي اتجاهاتها فتوحد مقاصدها واهدافها غالبا

معتبرا ان الاكتشافات العلمية في مختلف العصور مثل الادلة النظرية تثبت بالادلة القاطعة قضايا القصد والعناية والقدرة الباهرة والحكمة الكاملة في خلق الاشياء وتكون هذه العوالم في مختلف مظاهرها دون ما يهرف به بعض المتفلسفين الشكاك من ان هذه العوالم بما فيها من نظام وحكمة ومقادير بلغت من الدقة ما يحير العقول انما نشات بالمصادفة العمياء من غير قصد ولا تدبير من خالق عليم خبير .

ثم يقارن الفيلسوف الموزون في اماليه ما اثبتته العلم بما قرره القرآن حتى تتلاقى عقول العباقرة مع الوحي القرآني المنزل فتتكون من الجميع ادلة برهانية لاتدع مجالا للشك في وجود الله وعظيم قدرته وباهر حكمته وازليته وانه رب العالمين .

وكاني بالفيلسوف الموزون صاحب الامالي « قصة الايمان » عرض له في مدة دراسته للعلوم ما عرض لتلميذه حيران بن الاضعف أو شبيه به فقد حضر بلبنان دروس الشيخ الجليل حسين الجسر مؤلف الرسالة الحميدية فقال له الشيخ الجسر عند وداعه يا ابا النور : (كنية الشيخ الموزون) هذه الايام المعدودات التي سمعت بها الدروس لاتكفيك ، ولكنني انصحك ان تكثر من قراءة الفلسفة حتى لاتترك منها شيئا وتكثر من قراءة علوم الطبيعة ، وتكثر من قراءة القرآن يقول الموزون قلت : كيف اكثر من قراءة الفلسفة وهذا الشك ما اتاني الا منها ؟

فاجابه الجسر ياولدي ابا النور : ان الفلسفة بحر على خلاف البحور يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه ، والامان والايمان في لججه واعماقه، فاقراها يا ابا النور بصبر واناة ، ولا تترك شيئا مما قاله الفلاسفة عن وجود الله واحديته ، ثم اجمع اقوالهم وقارن بينها ووازن ، ثم اجمع من القرآن كل الآيات الدالة على وجود الله واقراها بتدبر على ضوء ما قرات من الفلسفة والعلم ، وارجع في التوفيق بين العلم والدين الى تحكيم العقل ، وسوف تجد نفسك بعد ذلك في احضان الايمان واليقين) .

ففي قول الشيخ الموزون كيف اكثر من قراءة الفلسفة وهذا الشك ما اتاني الا منها دليل على انه اصيب بشكوك حيرت نفسه ، الا ان عمله بوصية شيخه ازالت عن نفسه هذه الازمة ، وفرجت عنه تلك الغمة حتى حتى كونت منه فيلسوفا عظيما وهدته الى الله حتى املى هذه الامالي الهامة على تلميذه حيران بن الاضعف وقت عزلته في خلوته وانقطاعه عن الخلق الى الحق ، فكانت اماليه نبراسا هاديا يقدره العلماء والمفكرون ، ويهتدي بابحاثه القيمة الشبان المتنورون وينقطع بحججه الدامغة المتنطعون والجاحدون .

فالشيخ الموزون يحكي عن مدراسته للفلسفة فيقول: وتفرغت للمطالعة فقرات من الفلسفة ما شاء الله ان اقرا في سنين عديدة **والفت فيها** وقرات من القرءان ما شاء الله ان اقرا وجمعت منه الآيات الدالة على وجود الله كلها ، ورجعت في التوفيق بين العلم والدين الى تحكيم العقل كما امرني الجسر وخرجت من هذا الجهد الطويل بعد عشر سنوات الى الهدى واليقين وفتحت علي ابواب الرحمة كما بشرني الجسر حتى رضيت ، اما الهدى واليقين فقد بلغتهما بالموازنة بين كلام الكثرة العظمى من اكابر الفلاسفة القائلين بوجود الله وكلام القلة من الضعفاء الشكاك وبالمقارنة بين ادلة الفلاسفة وادلة القرآن ، وبجمع كل ما جاء في القرآن من آيات الخلق والتكوين الدالة على الله وتدبرها على ضوء الحقائق القاطعة التي اثبتها العلم حتى استنار قلبي فرايت الله فيه .

ومما يقوي الرغبة في الاطلاع على هذا الكتاب ان طريقة عرضه للآراء والافكار قصصية حيث سلك طريقة الحوار وقد صرح الشيخ الموزون باختيار هذه الطريقة بنفسه وكما يظهر من تأسفه بعد علمه بالشك الذي استولى على فكر التلميذ الجامعي الذي قصده لانقاذه من الضلال فقال له رضي الله عنه : وارحمتاه لكم يا شباب هذا الجيل .. انتم المخضرمون بين مدرسة الايمان من طريق النقل ومدرسة الادراك من طريق العقل ، وما هي كذلك يا ولدي ، بل هي سبيل للايمان بالله من طريق العقل الذي بني عليه الايمان كله ولكن الفلسفة يابني بحر على خلاف البحور يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه ، والامان والايمان في لججه واعماقه .

وبعد فقصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن جديرة بعناية الشباب المثقف ودراسته دراسة وافية لانها تحفة فكرية وخلاصة هادية وذخيرة علمية فيها لون خاص من الاشعاعات الروحية الفلسفية الهادفة ما يرضي العقل المتنور والروح الدينية ويجمعهما على صعيد الايمان الواعي المتبصر ، وما هذه الكلمة حول

كتاب « قصة الايمان » الا المامة خاطفة بخطوط موضوعاته الهامة والكتاب فى الحقيقة تحفة كلها غرر ودرر لاتستغني عنه خزانة الطالب المتنور ولا الباحث المتبصر وقد توصلت بكتاب « قصة الايمان » كهدية من مؤلفه الكريم ــ الذي تعرفت عليه عند انعقاد المؤتمر الاسلامي ببغداد ــ عن طريق سفارة المغرب بلبنان ووزارة الخارجية المغربية فشكرا للجميع ؛ وتقديرا لمؤلفه احببت ان انوه بجهوده العلمية وابعث اليه بواسطة مجلة « دعوة الحق » بالتحية الشعرية الآتية :

احيي نديم الجسر غب هدية
بها ثمرات العقل عقد منضد

نشرتم آل الجسر خير رسالة
تنير الحجا فى كل عصر وترشد

جلاها حسين ثم جاء نديمه
يتمم ما ابداه ذاك المجدد

فخلتكم جسرا لخير معارف
بها اسس الايمان ترسو وتسند

وما « قصة الايمان » الا خلاصة
لفلسفة التوحيد بالله تشهد

تلاقي بها القرآن والعلم والحجا
ونسقها الموزون شمسا توقد

بها ارشد الموزون حيران عصره
فدامت بروح الحق للخلق تسعد

ووافى بها حيران يطلب مهرها
لدانا من الذكر الحكيم يردد

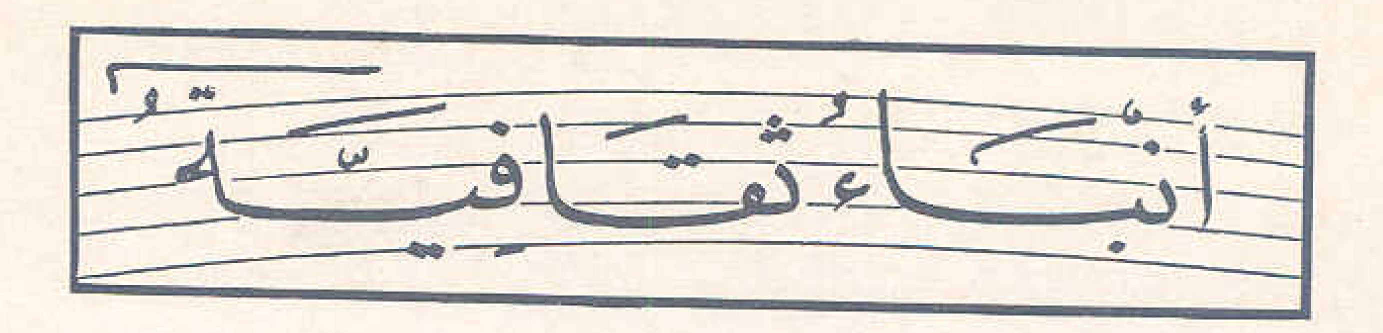
فالبسها كفء المعالي خطيبها
من الفن طوقا لايضاهيه عسجد

وصاغ لها من منطق العرب حلية
يتوق اليها كل حبر ويقصد

فدمتم نديم العقل فى كل مورد
بابكار فكر انها يتجدد

الرباط : محمد الطنجي





✻ صدر عن مطبعة القصر الملكي في الشهرين الاخيرين . كتاب (روضة النسرين في دولة بني مرين) لابن الاحمر . و (تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات من القصور) والجزء السادس من (اتبعاث امة) وقد قام بتصحيح الكتب المذكورة والتعليق عليها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور السكرتير الخاص لجلالة الملك .

✻ يطبع الآن بالمطبعة الملكية كتاب (روضة التعريف ، بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف) لمحمد الصغير اليفرني .

✻ صدر عن قسم التاليف والترجمة والنشر بوزارة الشؤون الاسلامية مسرحية (بقيت وحدي) للشاعر ابى بكر اللمتوني .

✻ اصدر معهد مولاي الحسن بتطوان كتاب (المغرب البونيقي) للاستاذ تراديل المدير السابق لمصلحة الآثار بتطوان والكتاب مكتوب باللغة الاسبانية.

✻ تقرر عقد المؤتمر الاقليمي الثالث للجان الوطنية العربية لليونيسكو في بداية الاسبوع القادم بمدينة القاهرة ، وقد علمنا ان سائر اللجان الوطنية العربية ستشارك فيه ، ومن ضمن جدول اعماله البت في النظام الداخلي لمركز التنسيق الذي اجمعت الدول العربية على أن يكون بالمملكة المغربية استجابة لما كان ورد في خطاب المغفور له محمد الخامس عند عقد المؤتمر الاقليمي الاول .

ومن المعلوم ان اول مؤتمر اقليمي كان انعقد بمدينة فاس سنة 1958 وتبعه المؤتمر الاقليمي الثاني الذي انعقد ببيروت منذ سنتين .

هذا وسيمثل المملكة المغربية في هذا المؤتمر كل من الاستاذ محمد الفاسي رئيس اللجنة الوطنية وعبد الهادي التازي الكاتب العام لمركز التنسيق وعبد الحفيظ الادريسي سكرتير اللجنة الوطنية .

✻ يهتم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بتوحيد جهود العرب في الميدان اللغوي ومن ابرز ما اوصى به مؤتمر التعريب الاول الذي انعقد بالرباط بين 3 و 7 ابريل 1961 وكذلك قبله مؤتمر المجامع العربية المنعقدة في دمشق بين 29 شتنبر و 4 اكتوبر 1956 ، تأسيس اتحاد للمجامع العربية أو مجموع عربي موحد ومن مهام هذا الاتحاد تنظيم الاتصال بين المجامع العربية وتنسيق أعمالها ، وقد تكلفت الامانة العامة لجامعة الدول العربية بالسهر على تمويل الاجتماعات الدولية التي يعقدها هذا الاتحاد الذي سيكون مسؤولا عن تنظيم الصلات لا بين المجامع العربية وحدها ، بل حتى مع وزارات المعارف والادارة الثقافية بجامعة الدول العربية . لهذا وجه مكتب تنسيق التعريب رسائل الى وزراء التربية والتعليم في الدول العربية التي لم تؤسس بعد مجمعا لغويا وطنيا ، وهي : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، والاردن ، والكويت ، واليمن ، والحجاز ، (السودان اسس مجمعا لغويا في الايام الاخيرة) ، كما ارسل خطابات في هذا الصدد لمعالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الاسلامية والى رئيس جامعة الرباط ممثل المغرب في المجلس التنفيذي لمكتب تنسيق التعريب .

✻ ينكب الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الامين العام لمكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية على وضع دراسة مطولة حول عروبة العامية المغربية ، ويندرج هذا البحث ضمن سلسلة مظاهر الحضارة المغربية التي يشكل هذا الموضوع المظهر اللغوي فيها ، وقد تركز البحث خاصة حول لهجة عاصمة المغرب حيث تضاربت خلال التاريخ معطيات لهجات الاندلس والبادية المغربية والبربرية مع التاثيرات الكلاسيكية العربية ، واضيف الى هذه

الدراسة الضافية نموذج للهجات القبلية فى شخص قبيلة « زعير » الواقعة فى احواز الرباط ، والتي تدل اصالتها على عراقتها فى العروبة رغم نظرية ابن خلدون فيها ، وقد وضع الامين العام لائحة نموذجية للالفاظ العربية الاصلية التي ما زالت مستعملة الى الآن في قبيلة « زعير » والتي يختلف كثير من عناصرها اختلافا بينا عن لهجة الرباط الحضرية ، وتتصل باشتقاقات لغوية قبلية فى الجزيرة العربية .

* ما فتئت مصلحة التعريب والعلاقات الخارجية بوزارة البريد المغربية توالي جهودها منذ اسست فى ميدان تعريب مصطلحات المواصلات السلكية واللاسلكية وتنظم المعارض وتعمل جادة فى الموضوع ، ومن ابرز اعمالها اصدارها لمجلة تعني بنشاط رجال البريد والبرق والهاتف داخل المغرب وخارجه وتشير بالخصوص الى التقدم الذي تحققه المصلحة فى هذا الصدد ، وقد صدر العدد الاخير منها حافلا بالموضوعات التي تهم الفنيين المغاربة وتعطي صورة عن نظام البريد المغربي قبل الاستعمار الفرنسي وبالاخص فى عهد جلالة الملك الحسن الاول .

* نظمت وزارة الانباء مهرجانا فى مدينة فاس بمناسبة ذكرى المولى ادريس الثاني .

* اصدرت الجمعية الثقافية المغربية اول كتاب لها عن (فرانز فانون او معركة الشعوب المتخلفة) وهو عبارة عن دراسات كتبها الاساتذة : محمد زنيبر ، مولود معمري ، محمد برادة . نرجو للجمعية الفتية اطراد التوفيق ، كما نرجو للكتاب المزيد من الرواج .

* فى مطلع الشهر المنصرم وصل الى المغرب الشيخ المكي الكتاني رئيس علماء سوريا وذلك بدعوة من صاحب الجلالة الحسن الثاني وقد حظي الشيخ الكتاني بمقابلة جلالة الحسن الثاني فى العاصمة الصيفية .

* انعقد بالرباط اجتماع حضره الاستاذ محمد الفاسي ، رئيس الشعبة الوطنية للتعريب ، وخليفته رئيس مؤتمر التعريب ، والاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الامين العام للمكتب الدائم للتعريب ، والاستاذ احمد الاخضر ، مدير معهد التعريب ، والمستشار الفني العام للمكتب الدائم . ودرست خلال هذا الاجتماع عدة قضايا تهم التعريب ، واهمها : مهرجان اسبوع التعريب الذي قرر المكتب الدائم ان ينظمه ابتداء من 6 الى 9 يناير المقبل ، للتعريف بمجهود الدول العربية فى ميدان التعريب ، وقد اتخذت الاجراءات والترتيبات اللازمة لنجاح هذا المشروع .

* اتخذ وزير الصحة العمومية المغربية قرارا يقضي بفتح مدارس للدولة تهيء لاخذ دبلوم الممرضات والممرضين فى الدار البيضاء ، ومراكش ، والرباط ، ومكناس .

* نظم المجلس البلدي لمدينة طنجة وجمعية الدفاع عن حقوق طنجة مهرجانا ادبيا بقصر مرشان القى خلاله الاستاذ عبد الله كنون محاضرة عن ابن بطوطة ورحلاته .

وقد حضر هذا المهرجان السيد احمد العلوي وزير الانباء وعدة شخصيات . وعلى اثر المحاضرة توجه الحاضرون الى الساحة الموالية لقصر مرشان حيث ازاح السيد احمد العلوي الستار عن اللوحة التي تحمل الاسم الجديد لساحة ابن بطوطة ، كما القى السيد احمد العلوي كلمة بهذه المناسبة وقررت وزارة الانباء والسياحة انشاء جائزة ابن بطوطة وستقدم الوزارة كل سنة هذه الجائزة لاحسن كتاب يصدر فى التاريخ او الجغرافية او الادب .

* انعقد اخيرا بتونس مؤتمر للخبراء فى التعليم الثانوي العام الذي دعت اليه منظمة اليونيسكو ، ونظمته باتفاق مع الحكومة التونسية وحضرته الدول العربية الآتية : المغرب ، الجزائر ، ليبيا ، الجمهورية العربية المتحدة ، السودان ، سوريا ، لبنان ، الاردن ، السعودية ، عدن ، قطر ، كما حضره عدد من الملاحظين لتمثيل بعض الهيئات الدولية كوكالة بحوث اللاجئين الفلسطينيين ، والجامعة الدولية لنقابة رجال التعليم ، والجامعة الدولية للتعليم المسيحي ، وقد مثل المغرب فى هذا المؤتمر السيد محمد بن البشير ، المكلف بالادارة العامة للتعليم .

* سافر مؤخرا الدكتور يوسف بلعباس وزير الصحة العمومية والمكلف بوزارة التربية الوطنية الى باريس حيث عمل سيادته هناك من اجل تأمين الدراسة للاطفال المغاربة الذين يقيمون مع آبائهم فى باريس . وكذلك لدراسة عدد من القضايا التعليمية مع المسؤولين فى وزارة التعليم .

* سافرت عشرون معلمة مغربية من مختلف المدن المغربية الى باريس للقيام بزيارة دراسية لفرنسا حيث يتفقدن مختلف مؤسسات التعليم الفرنسية ، كما يتلقين دروسا .

* اقيم احتفال كبير بذكرى المولى ادريس الاكبر فى الاسبوع الثاني من الشهر المنصرم .

* زار السينغال فى الايام الاخيرة وفد من الطلبة المغاربة ، ومن المنتظر أن يصل وفد من الشباب السينغالي الى المغرب لمبادلة الزيارة .

* زار المغرب فى رحلة دراسية المستشرق المجري السيد بوجا استفان ؛ وذلك لدراسة اللغة العربية وآدابها فى المغرب . وقد سبق للسيد المذكور ان ترجم « الايام » لطه حسين ، ورواية « الارض » لعبد الرحمن الشرقاوي وعدة قصص لتيمور . وينوي أن يقوم بترجمة بعض القصص المغربية الى اللغة المجرية .

* فى دائرة تعريب التعليم بالسودان قررت جامعة الخرطوم الاستعانة ببعض الاساتذة والموظفين العراقيين لملء الشواغر الموجودة لديها فى التعليم ، وسيؤسس فى الخرطوم مجمع لغوي .

* فى دائرة توحيد القانون المدني بين الدول العربية شرع الدكتور عبد الرزاق السنهوري فى اعداد مشروع للقانون المدني العربي سيقدمه الى الدول العربية ليكون اساسا للبحث فى توحيد القانون المذكور.

* شرع رئيس الجامعة اللبنانية الاستاذ فؤاد افرام البستاني فى كتابة دراسة مطولة عن الاستشراق واثره فى الثقافة العربية .

* افتتح فى منتصف الشهر المنصرم الدورة السابعة لمؤتمر الصحفيين الناطقين باللغة الفرنسية .

* يعقد فى هذا الشهر مؤتمر لرجال القانون الاسيويين والافارقة بكوناكري .

* عقد فى طاقانارتف مؤخرا مؤتمر للتعليم بافريقيا وقد نظمته اليونيسكو بمساهمة 31 دولة من افريقيا .

* عقد فى تونس من 6 الى 16 من الشهر الماضي المؤتمر العربي الرابع للاثار .

* خصصت الحكومة الايطالية 100 منحة دراسية للطلبة التونسيين الذين يرغبون فى متابعة دراساتهم فى المعاهد الفنية الايطالية .

* عقد فى القاهرة فى أوائل هذا الشهر المؤتمر الاقليمي للجان الوطنية العربية لليونيسكو .

* استقال الدكتور طه حسين من عمله كأستاذ متفرغ فى كلية الآداب بالقاهرة بسبب حالته الصحية .

* تقوم وزارة الثقافة بالقاهرة بنشر مسرحية (منزل القلوب الكبيرة) لبرنارد شو الذي ترجمها الى العربية محمد سامي احمد وراجعها شكري عياد .

* صدر فى القاهرة كتاب (علم اللغة) للدكتور محمود السعداني يتضمن عرضا للنظريات الحديثة فى فهم اللغة .

* صدر مرسوم بتعيين الشيخ عبد المشد امينا عاما لمجمع البحوث الاسلامية بالازهر .

* فى مطلع هذا الشهر عقدت بالقاهرة أول حلقة دولية لدراسة التطور الاجتماعي فى العالم العربي .

* « الخطر » رواية مصرية طويلة من تاليف فتحي الرملي صدرت حديثا فى القاهرة .

* سينعقد فى القاهرة مؤتمر للاعلام لم يحدد موعده بعد .

* خصصت الجمهورية العربية المتحدة 15 منحة دراسية للتعليم العالي والجامعات لطلبة طانجنيقا .

* ستدشن قريبا مجموعة من المختبرات العلمية للابحاث الذرية فى ج.ع.م .

* صدر فى أول شتنبر المنصرم بالقاهرة طابع بريدي تذكاري بمناسبة اطلاق الصواريخ .

* تقوم رابطة الدفاع عن حقوق المرأة بنشاط واسع لا سيما فى فتح مدارس مكافحة الامية بين النساء وقد فتحت مدارس عديدة فى المناطق الشعبية بالعراق .

* صدر فى السودان ديوان « الزيتون » لصالح آدم بلو .

* سيعقد فى العراق المؤتمر العلمي الخامس وذلك فى شهر فبراير من السنة المقبلة .

* فى بغداد صدر كتاب « الروح فى الاسلام » لمؤلفه ابراهيم الكواز .

* انتهى الاستاذ كوركيس من اعداد دراسة مطولة عن « الكند » ستقوم بنشرها وزارة الارشاد بالعراق .

* كتب الدكتور علي جواد دراسته عن « لامية الطغرائي » مع تحليل ومناقشة لتسميتها بلامية العجم .

* « تاريخ بغداد لابن السويدي او حديقة الوزراء فى سيرة الوزراء » اسم كتاب صدر فى بغداد من تأليف الشيخ عبد الرحمن السويدي .

* اصدرت جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين ببغداد مجلة « الكتاب » .

* قرر المجمع العلمي العراقي طبع جميع المصطلحات العلمية التي أنجزها فى السنوات الاخيرة فى كتاب واحد تيسيرا للباحثين .

* اعلنت وزارة الصحة بالعراق أنها اتخذت ترتيبات لافتتاح اول كلية للتمريض فى الشهر القادم .

* عين المجمع العلمي العراقي الاستاذ محمود تيمور عضوا مراسلا له .

* يقوم الدكتور عبد العزيز الدوري فى بغداد بتحقيق نسخة لكتاب البلاذري المؤرخ العربي .

* سيقام فى مطلع الشهر القادم مهرجان كبير فى بغداد باسم « بغداد ـ الكندي » ويستدعى اليه عدد كبير من اساتذة الجامعات واعضاء المجامع العلمية فى البلاد العربية .

* الدكتوران عبد الجبار المطلبي وعبد العزيز الددري يقومان بتحقيق مخطوطة فريدة عن الدعوة العباسية .

* يعكف الاستاذ عبد الله الجبوري فى بغداد على تحقيق نسخة خطية لديوان ابن النقيب

* تطبع فى بغداد موسوعة عن « شعراء بغداد » التي قام بتأليفها الشيخ على الخاقاني .

* « الموجز فى تفسير القرآن الكريم » كتاب يصدر قريبا فى العراق وهو من تأليف الشيخ عبد الجبار الاعظمي .

* طبعت ببيروت « جماعة عباد الرحمن » رسالتين صغيرتين الاولى بعنوان « دروس اسلامية » والثانية « الاسلام والمراة » وتحتوي كل واحدة منها على عشرة صفحة بأسلوب مبسط متين .

* تواصل دار الفكر فى بيروت نشر اجزاء « تاج العروس من جواهر القاموس » باشراف الدكتور مصطفى فؤاد . وقد صدر مؤخرا الجزء الثاني من هذا القاموس المهم .

* صدر فى بيروت قاموس العلايلي الذي يقع فى ثلاثة اجزاء وكل جزء فيه أكثر من الف صفحة .

* بعد ما قضى المؤرخ اللبناني يوسف ابراهيم يزبك سبع سنوات فى جمع قصائد داود عمون اصدرها فى ديوان

* صدر للمفكر اللبناني الاستاذ ميخائيل نعيمة كتاب « اليوم الاخير » .

* « السمكة والبحار الزرق » مجموعة قصص للقاص السوري عدنان الداعوق ، تقديم عبد السلام العجيل ، صدرت حديثا فى بيروت ، وللمؤلف كتابان هما « ذات الخال » و « ستشرق الشمس زرقاء » .

* « جرار الطيب » ديوان صدر فى لبنان للشاعر سهيل ايوب .

* يطبع في بيروت كتاب (اساطير ملهمة) للدكتور زكي المحاسني .

* قام الشاعر والكاتب الجزائري كاتب ياسين بزيارة الى لبنان للاشراف على طبع بعض ترجماته العربية هناك .

* يعكف الاستاذ انطوان مزوان على جمع نتاجه الادبي لاصداره في كتاب يقدمه الاستاذ سعيد عقل .

* جائزة شهرية قدرها الف ليرة لبنانية تكافيء لبنانيا او ضيفا للبنان على بادرة او كلمة مهما كانت صغيرة من شانها ان تزيد لبنان محبة وحقا وجمالا ، وقد قدم هذه الجائزة الشاعر سعيد عقل .

* اعد للطبع الكاتب اللبناني فيكتور حكيم مجموعة قصص مأخوذة من الحياة اللبنانية .

* صدر في سلسلة المكتبة الفلسفية في لبنان كتاب « فلسفتنا » للاستاذ محمد باقر .

* « من ذكرياتي » كتاب لعبد العزيز القصاب يشتمل على تاريخ العراق السياسي من العهد العثماني الى عهد الاستقلال يصدر قريبا في بيروت .

* « جديد في الفن والادب » عنوان كتاب يعده ميشيل عاصي يبحث في الاصول الجمالية وفنون الادب .

* ترجم الاستاذ نبيه صقر رواية الكاتب الفرنسي « الاب غوريو » لبلزاك الى اللغة العربية .

* اصدر نقولا يواكيم مجموعة شعرية بعنوان « بابل » .

* « عبد الرحمن الكواكبي سيرته وادبه » كتاب صدر لقدري قلعجي . في بيروت .

* صدرت في بيروت الترجمة العربية لكتاب « تيارات الفكر الفلسفي » لمؤلفه اندريه كريسون قام بترجمته الى العربية الاستاذ نهاد رضا .

* نعت بيروت الشاعر توفيق حسن الشرتوتي الذي كان من ابرز الاقلام اللبنانية في الصحافة .

* « النظم الدستورية في لبنان والبلاد العربية والعالم » اسم كتاب من منشورات عويدات ببيروت لمؤلفه الاستاذ عبده عويدات .

* قام الاستاذ بيج عثمان بترجمة كتاب « مزيفو النقود » للكاتب الفرنسي الشهير اندريه جيد .

* صدر عن منشورات عويدات ببيروت مجموعة قصص من تأليف الشاعرة والقصاصة اللبنانية ثريا ملحس بعنوان : « العقدة السابقة » .

* « في الهواء الطلق » آخر ديوان صدر للشاعر اللبناني امين نحلة .

* تقرر في لبنان قانون جديد للمطبوعات وتنظيم الصحافة الذي ينص على وجوب انشاء كلية للصحافة وصندوق تقاعد الصحفيين .

* « مقدمة لدراسة علم السياسة » كتاب صدر للدكتور حسن صعب .

* منحت وزارة الثقافة السورية لورثة المرحوم عبد الباسط الصوفي مكافأة قدرها 1100 ليرة لقاء تنازلهم عن حقوقهم في آثار الشاعر الادبية التي اختارتها الوزارة لطبعها .

* نعت دمشق العلامة الشيخ حمدي الاسطواني المعروف بالسفرجلاني .

* اعد للطبع القاص مراد السباعي من دمشق مجموعة قصصية بعنوان « الشرارة الاولى » .

ترجم الى العربية شعرا محمد الفراتي ديوان لثلاثة من كبار شعراء الفرس : جلال الدين الرومي ، وسعدون الشيرازي وحافظ الشيرازي ، وتصدر هذه الترجمات في ديوان .

* تاسست في دمشق « دار الشرق للطباعة والنشر » وستستهل عملها باصدار كتاب « معارك المعركة في سورية » للاستاذ فارس زرزور .

* سيقام في سوريا احتفال كبير لرائد المسرح العربي أبو خليل القباني .

※ تقرر فى دمشق اطلاق اسمي محمد كرد علي، وخليل مردم، على شارعين فيها، تخليدا لذكراهما .

※ « نداء الام » ديوان لتوفيق اليازجي صدر فى هذه الايام فى دمشق .

※ « اللؤلؤ المكنون » ديوان شعر صدر بدمشق لصاحبه محمد غزيل .

※ « الاعترافات الكاذبة » رواية من تأليف ماريو، وترجمة رفيق الصبان صدرت مؤخرا بدمشق .

※ نعت دمشق المربي الكبير قدري العمر مدير التربية والتعليم السابق فى دمشق .

※ ستصدر فى دمشق جريدة يومية بعنوان « سوريا » .

※ صدرت فى دمشق مجموعة شعرية بعنوان « تحت سماء آسيا » لمؤلفها الياس الفاضي .

※ « فنون وصناعات دمشق » كتاب للفنان منير كيال عن الصناعات اليدوية الفنية الدمشقية القديمة والحديثة .

※ احتفلت جمعية الابحاث العلمية بحلب بذكرى خمس سنوات على تأسيسها .

※ تنوي دار الثقافة فى دمشق اصدار كتاب يضم قصيدة لكل شاعر من شعراء سوريا مع نبذة عن تاريخ حياته .

※ صدرت للكاتبة كوليت الخوري فى هذا الاسبوع تسع قصص .

※ عادت الى الصدور فى دمشق مجلة « الدنيا » التي احتجبت مدة طويلة عن القراء باسم جديد هو « الدنيا الجديدة » .

※ اقيم فى حلب مهرجان الشعر افتتح بتاريخ 25 شتنبر الماضي

※ بعد احتجاب عادت الى الصدور فى دمشق الجريدة الادبية الثقافية « الناقد » لصاحبها الدكتور نزار صبري .

※ احتفل فى حماة بذكرى الشاعر العاصي بدر الدين الحامد .

※ أصدرت مجلة المعرفة الدمشقية عددا حافلا بالمقالات والدراسات الادبية .

※ « المستشرقون والاماكن المقدسة » عنوان كتاب صدر للدكتور محسن جمال الدين استاذ الادب الاندلسي بجامعة بغداد .

※ صدرت لكوليت الخوري الكاتبة السورية رواية « انا والمدى » .

※ اصدر مندوب الجامعة العربية فى البرازيل كتابا بالبرتغالية عن « جبران خليل جبران » .

※ اقامت سوريا فى اواخر الشهر المنصرم مهرجانا شعريا كبيرا بمناسبة ذكرى الشاعر العربي ابو فراس الحمداني .

※ افتتحت فى السعودية مائة وعشرون مدينة جديدة .

※ « ايام فى الشرق الاقصى » كتاب صدر للكاتب السعودي علي حسن فرعون .

※ اصدر السيد ابراهيم العياشي كتابا عن المدينة المنورة وتاريخها .

※ صدر فى الايام الاخيرة مرسوم ملكي اردني بالموافقة على تأسيس الجامعة الاردنية على أن يكون مقرها موقع الجبهية القريب من عمان .

※ عثر على اقدام حيوان الدنيا صور فى مزرعة قريبة من القدس . وهذا اول اكتشاف يدل على وجود هذا المخلوق الضخم الذي عاش عبر التاريخ فى منطقة الشرق الاوسط .

❊ اصدرت الحكومة الاردنية طابعا تذكاريا بمناسبة استقلال الجزائر .

❊ افتتح فى قرية بوستا بيوغسلافيا مسجدا اسلاميا جديدا .

❊ يعكف رجال القانون فى بلغراد على ترجمة الدستور اليوغسلافي الى اللغات الانجليزية والروسية والاسبانية والفرنسية والالمانية .

❊ اجتمع خبراء من حوالي اربعين دولة فى بون لوضع اطلس جديد للعالم هو الاول من نوعه منذ عام 1917 ولا تتوفر لدى الخبراء حتى الآن معلومات من البلدان الشيوعية لانها لم ترد على الدعوات التي وجهها اليها المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للامم المتحدة الذي اشرف على تنظيم هذا المؤتمر .
ويستخدم الاطلس الجديد للاغراض العلمية .

❊ فى جامعة هايد لبرج افتتح معهد لجنوب شرقي آسيا ، ويهتم هذا المعهد بتاريخ الدول الاسيوية وقضاياها الحاضرة ، وقد قامت لجنة المعهد بالاتصالات المباشرة مع الهند ، والباكستان ، واقترحت الجهات الهندسية تأسيس معهد مشابه فى احدى الجامعات الهندسية ، فيقوم بالتعاون مع معهد هايد لبرج الذي يحاول بحثه عن اقرب سبيل للتعاون مع المعاهد المماثلة فى البلدان الاخرى .

❊ اقام متحف شيلر الوطني فى مدينة «لامارباخ» معرضا ادبيا عن حياة وانتاج الشاعر جيرها ردهاوتجان وذلك بمناسبة حلول الذكرى المئاوية .

❊ منحت جائزة هانزا جوته 1962 للملحق البريطاني بنجامين بريتي تقديرا لخدماته فى حقل الموسيقى الدولية وتعطى هذه الجائزة ابتداء من عام 1950 .

❊ يعد المستشرق السويسري الدكتور هوتنجر كتابا عن المؤرخ المصري « الجبرتي » بتكليف من احد معاهد الاستشراق فى المانيا .

❊ ستعقد اللجنة التنفيذية للمجالس الدولية لاتحاد العلوم اجتماعا فى منتصف هذا الشهر ببراغ وبهذه المناسبة ستنظم كلية العلوم التشيكوسلوفاكية مؤتمر رؤساء كليات العلوم والمعاهد العلمية فى 52 بلدا من مختلف انحاء العالم لدراسة مسالة التعاون الدولي فى ميدان العلوم والتصميم والابحاث العلمية وتكوين الاطارات العمالية على الصعيد العمالي .

❊ صادق عميد جامعة الازهر على افتتاح معهدين اسلاميين للجمهورية العربية المتحدة فى براغ وفى الاقليم الشمالي بالصومال .

❊ افتتح مؤخرا فى مدينة «برنو » بالمانيا معرض للوحات الفنية والنحت العربي ،وذلك بمناسبة المعرض الدولي الذي اقيم فى هذه المدينة من 9 الى 23 من الشهر المنصرم ، ويشتمل المعرض الفني العربي على 48 لوحة فنية و 8 قطع منحوتة من انتاج 26 فنانا مصريا .

❊ حضر الكاتب الفرنسي جان بول سارتر والكاتبة القصصية ناتالي ساروت أعمال المؤتمر الدولي للكاتب الذي عقد بايدنبورغ ، ومثل الكتاب الامريكيين فى هذا المؤتمر السيد جيمس ب . الووين ، ونورمان فيلروتشيسي وليافز ، كما ناب عن رجال الفكر والكتاب الانجليز كل من الدولس هكسل وستيفن سندر وايركيس مردوش .

❊ ستصدر المنظمة الدولية للتغذية والزراعة طوابع بريدية عالمية للقيام بحملة عالمية ضد المجاعة

❊ افتتح مؤخرا فى قرطبة المؤتمر الدولي للدراسات العربية .

❊ اكتشف بوليس طوكيو لوحة أثرية من لوحات الفنان المشهور ريفوار يبلغ ثمنها 30 الف دولار . وكان اللصوص قد سرقوا هذه اللوحة منذ شهرين من احد المتاحف الفنية .

* عقد اخيرا فى اودين بايطاليا مؤتمر لرجال الثقافة ، وقد صرح فى الاخير بعض اعضائه ان هذا الاجتماع اكتسى صبغة عالمية مما ادى الى الدعوة الى انشاء جمعية عالمية للثقافة والغاء الحرب من حياة الانسان ، كما دعا المؤتمر جميع رجال الثقافة فى جميع انحاء العالم الى التعاون والمشاركة فى هذه الدعوة ، كما قرر المؤتمر ان يعم الاتصال ممثل الدول الافريقية والغربية فى دكار خلال فصل الربيع من السنة المقبلة باقتراح من رئيس جمهورية السينغال .

* اقيم فى نيودلهى المؤتمر السادس للكتاب الهنود من 3 الى 16 غشت المنصرم .

* شوهدت فى معرض الادوات الالكترونية والاوتوماتيكية بلندن آلة جديدة يمكن بها اعداد الكتب للمفكرين وترجمتها بسرعة بالغة . وتعمل هذه الآلة على اساس الاستعاضة عن الحروف بخطوط من النقط الصغيرة .

ويوضع الشريط الذي تطبع فوته هذه النقط فى عداد خاص لهذا الغرض ، ومن المنتظر ان تستخدم هذه الآلة فى مركز بلندن لتدريس المكفوفين على اعمال الطباعة والاختزال وبدالات التليفون .

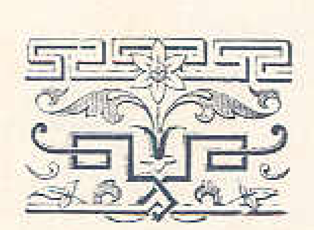
* ابرمت فى الايام الاخيرة اتفاقية فى « هافانا » تقضي بتبادل البعثات الثقافية بين كوبا ورومانيا .

* تعد الجمعية الجغرافية الوطنية الامريكية بالاشتراك مع مرصد لوويل اطلسا جغرافيا عن الاجرام السماوية حيث سيوزع مجانا على جميع المراصد فى العالم وتقول الجمعية بأن الاطلس سيتضمن احسن الصور المعبرة الواضحة التى اخذت للكواكب البراقة القريبة من عطارد الى زحل .

* احتفلت الامم المتحدة بالذكرى الاولى لمصرع همرشولد وشهداء السلام .

* احتجبت فى بروكلي جريدة « مرآة الغرب » بعد صدورها 63 سنة باستمرار .

* عقد فى نيويورك المؤتمر العاشر لتاريخ العلوم.



فهرس العدد الاول ـ السنة السادسة

صفحة